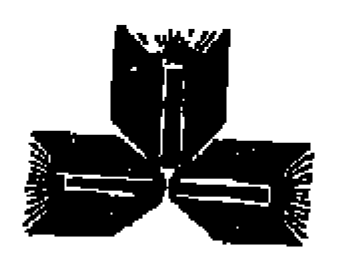
في غياب السلطة الفكرية





كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف

أبو زيان السعدي

في غياب السلطة الفكرية



منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة / تونس

انعدد المسند من طرف الناشر 90/270
تم ايداعه بالمكتبة الوطنية في شهر سبتمبر 1990
* * *
تدمك : 2 ـ 69 ـ 712 ـ ISBN 9973

الجامعة الزيتونيّة : واقع وآفاق

حين تؤرّخ للفكر الاجتماعي والسياسي والثقافي التونسي، لا بدّ أن نضع في اعتبارنا أحد العوامل الأساسيّة الهامّة ، التي أثّرت في طبيعة الأحداث ، ووجّهتها هذه الوجهة التي عرفت بها تونس ، قديما وحديثا ، هذا العامل المؤثر هو جامع الزيتونة ، كمؤسسة تربويّة وتعليميّة وفكـريّة ، وكمدرسة للنضال الوطني السياسي ، استطاعت لفترة طويلة من الزمن ، أن تقدم لشعبنا الصامد، قوادا مصلحين ، ومفكرين ممتازين ، ناضلوا النضال القوي الذي جعل جماهيرنا الشعبية تؤمن إيمانا راسخا ، بحقّها التاريخي في السيادة الكاملة ، وفي السيطرة على مقدّراتها رافضة بذلك كل أشكال الوصاية ، مقنّعة كانت أو ظاهرة.

إن تاريخنا التونسي ، لا يمكن أن ينسى رجالا أفذاذا ، أمثال الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، الذي استطاع بثبات أن يؤسس مدرسة سياسيّة كبرى تخرّجت منها كوادر ممتازة لعبت أدوارا حاسمة في هذه النهضة الشاملة التي يأخذ بها

شعبنا ، وكانت درعا واقيا، أمام السياسة الشموليّة الاستعماريّة ، التي حاولت تغيير البنى الأساسيّة للمجتمع التونسي ، وبالتّالي ربطه بعجلة الامبرياليّة الأوروبيّة ، واستغلال ثرواته ، والتصرّف في ممرّاته وقواعده الاستراتيجيّة ، وغير الشيخ الثعالبي ، من رجال الفكر والأدب والاجتماع ، كالشابي وابني عاشور محمد الطاهر ومحمد الفاضل ، والخضر بن الحسين ، ورجال القضاء والصحافة والأدب والتعليم ، ومن هنا فان الحديث الذي يتردّد الآن في صحفنا ونوادينا ، وكواليسنا التربويّة والسياسيّة ، عن إنشا « جامعة زيتونيّة » يتنزّل في إطار الوفاء لتاريخها الماجد وإعادة الاعتبار لجهود العاملين من أبنائها ، تأكيدا لهوية بلادنا العربية الاسلاميّة ، وصلتها المتينة بحضارة شامخة ، أثّرت تأثيرا بالغا ، في كثير من شعوب الأرض وقدّمت لهم الزاد المعرفي ، الذي انطلقوا منه لإنشاء ألوانهم الحضارية ، كهذه الحضارة الجديدة المسمّاة بالأوربيّة ، وغيرها من حضارات الشرق الأوسط والأقصى كذلك .

ومن أجل أن يتجسّد مشروع الجامعة الزيتونيّة هذا ، ويتحقق بالصورة الجديدة التي نريدها لكل مشاريعنا

العلميّة ، فانه يتعيّن على أهل الذكر من علمائنا وباحثينا وأساتذتنا ، وهم كثيرون في عديد المؤسسات التربويّة ، أن يتنادوا منذ الآن إلى عقد ندوات منتظمة يطرحون فيها أسس القوانين الإنشائيّة ، وأصول الفلسفة التربويّة والتعليميّة ، التي ستنبثق عنها جامعتنا الجديدة ، وبالطبع فلا بدّ أن نستهدي في ذلك بتجارب الجامعات الإسلاميّة الأخرى ، الموجودة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي.

ومن وجهة نظري ككاتب وأستاذ ، ومعنيّ بالأمر منذ شبابي ، فاني أعتقد أنها ينبغي أن تقوم على أسس واضحة منذ البداية ، أي جامعة حقيقيّة متكاملة ، لا مجرّد معاهد عليا ، تعنى ببعض المواد الدينيّة وحسب ، نريدها جامعة شاملة ككل جامعات العالم الأخرى ، العلم الديني إلى جانب العلم الرياضي والتطبيقي ، فيتخرج منها المهندس والطبيب واللغوي والأديب والاجتماعي والقانوني، وصاحب الدعوة والوعظ ، وغير ذلك من فروع العلم الأخرى ، يربط بينهم جميعا ، ذلك الوعي العميق بحضارة الإسلام ، وعبقرية لغته العربية ، وقدرتها التامة على مجاراة حضارة العصر ، بكل ما فيها من مبتكر وجديد ، نعم إن هذا يتطلب وقتا وجهدا ومالا ، ولكن متى كانت المشاريع الكبرى تتحقّق بيسر

وسهولة ؟

وإني لواثق من وجه آخر ، أن كثيرا من أبناء شعبنا الغيور ، سيتقدمون للنهضة بهذا المشروع ، ويبذلون في سبيله كل ما يحتاج اليه ، فمازال العديد يتذكّرون ، من طلاب الزيتونة وغيرها ، كيف كان أولئك الغيورون ، ينهضون بمسؤولياتهم في رعاية المدارس الزيتونيّة للسكني ، وتقديم مختلف أنواع الإعانة ، جيلا بعد جيل ، وعصراً بعد عصر .

لقد ضحّى الزيتونيون ، والشعب من ورائهم ، منادين بالإصلاح وتعصير التعليم والانفتاح على تجارب العصر وعلومه ، وإذا كانت الظروف القاهرة حالت بينهم وبين الذي يؤمّلون ، فها هي رياح التغيير تهبّ ، وها هي الأضواء تقتحم سجف الظلام ، ومن أجل ذلك فإنّك ستجدهم في الموعد ـ كما يقولون ـ متهيّئين للبذل والتضحيّة من جديد ، من أجل العلم ، ومن أجل الوطن دائما .

إنه يحق لكل مثقف جاد ، من أبناء هذا الوطن ، ولكلّ من آمن بقيم شعبنا الأصيلة ، الصامدة على مدى العصور ، أن يعلن غبطته بانبعاث الجامعة الزيتونيّة ، لتواصلَ المهام

التاريخيّة ، التي نهض بها الجامع الأعظم ، قرنا بعد قرن ، وعصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل ، فاننا بازاء مرحلة تاريخيّة فاصلة ، يستردّ فيها شعبنا أعظم مؤسسة تعليميّة على الإطلاق ، كانت دوما العقل الذي يدبّر واليد التي تهذّب ، والإرادة الفولاذيّة التي تحمي ، واذا كان الهوى السياسي ، والانغلاق الفردي ، قد عطّل مسيرتها فترة ، وحاول أن يغيّر مجرى التاريخ الكبير ، فها هي ذي الأيام ، تثبت بأنه كان واهما ، وأن اندفاعه كان تحت تأثير سورة غضبيّة ، تحكّمت فيها عصبيّة النشأة الغامضة ، والانتماء المزوّر ، لفلسفة تبيّن أنها أكذوبة الأكاذيب في هذا العالم ، ذلك أن القيم الأصيلة التاريخيّة بحقّ ، القيم التي امتحنتها الشعوب فصحّت ، وباشرتها الأحداث السوداء ، فخرجت منها أصلب عودا ، لا يمكن شقّها أو إلغاؤها أو محوها ، لاتّصالها العميق بكينونة الشعب ، وارتباطها المتين بتجاربه الحضاريّة في كل ميدان ، وكانت له عنوان قدرة وابتكار في كل وقت .

لقد صاحب غلق الزيتونة في تلك الأيام السوداء التي نعرف ، حملة منكرة من الكلام الباطل ، الهوائي الأجوف ، الذي لا يتساند منطقه ، ولا يقدم ما يفيد ، عقلا أو عاطفة ،

إذ هو يجترئ على الحقيقة فيشوّهها ، وعلى الواقع فيعبث به ، مدّعيا بأن التعليم الزيتوني يتأبّى عن كلّ إصلاح ، وانه أداة عرقلة أمام كل نهضة وتحديث ، بينما المنصفون من أهل العلم والتجربة ، يعلمون علم اليقين ، أن الأمر ليس كذلك ، فالزيتونيون كانوا دائما دعاة إصلاح وتجديد ، يتصدّرون مواقف النضال الحاسمة ، فيؤسسون المنظمات والجمعيات ، ويتصدّون بكل بسالة للذّود عن الحمى والسيادة ، وقضايا مطالبهم الإصلاحيّة معلومة مشهورة منذ الثلاثينات ، ولا شك أن الكثير من أبناء شعبنا ، مازالوا يتذكرون حركــــة « صوت الطالب الزيتوني » في بداية الخمسينات ، والنضال العنيف الذي ساهمت به في محاربة الإستعمار الأجنبي ، وما كانت تقدّمه من مطالب محدّدة ، لتعريب الإدارة التونسيّة ، وتعصير التعليم ، حتى يفي بحاجة البلاد وهي تتهيّأ لاستقلالها التّام ، وكانت المفاجأة غير السارة ، أنها استهدفت لقمع وحشيّ ، نفّذته أياد لم تكن في الحسبان ، تنتمي مع الأسف إلى هذه التربـــة العزيزة ، وإلى هذا الوطن المفدّى ، واني لأحيل القــراء الشباب بخاصة إلى أدبيات هذه اللجنة المناضلة عبر جريدتيها «صوت الطالب الزيتوني » و « صدى الزيتونة » فان فيهما من البيانات والمقالات

والدراسات والمتابعات ، ما يدلّ دلالة قاطعة ، على أن الأمر جدّ ، وأن العمل الإصلاحي الذي نادى به الزيتونيون ، لم يكن كلاما يرتجل ، أو موقفا تمليه مناسبة عابرة ، وانما هو خطة محكمة ، وقراءة واعية متأنيّة للواقع التربوي والتعليمي ، بهدف إرساء تعليم عربي إسلامي ، يستجيب من ناحية للأصول الحضاريّة التي ينتمي اليها شعبنا ، ويحقق هذا اللقاء الجدلي بحضارة العصر من ناحية أخرى .

إن التذكير بهذا ـ وهو تاريخ لم يكتب بعد ـ إنما قصدت به الإشارة إلى المسووليّة الثقيلة التي يتحمّلها من يتصدّون الآن لإرساء الجامعة الزيتونيّة ، ومن أجل ذلك ، فهم مطالبون بأن يكونوا في مستوى هذه المسؤوليّة ، وأحب أن أشير هنا الى أمور :

أولها : أن يضمّ المجلس العملي للجامعة ، لا مدّرسيها فقط ، وإنما أهل الذكر من العلماء والمفكرين ، الذين عرفوا في كل وقت بصلابتهم وصحة مواقفهم ، وسلامة مناهجهم ، قولا وفعلا .

ثانيها : أن تطالب جامعتنا الجديدة ، بعودة كل مؤسساتها القديمة اليها ، من أبنية ومقرات ومكتبات ،

كالخلدونيّة والعبدليّة ، ومكتبة التلميذ الزيتوني وسواها ممّا هو متفرق في الجهات كالأحياء الزيتونيّة ، والذي ضمّ إلى مؤسسات أخرى ، بغير وجه حق .

ثالثها : أطالب ببعث وزارة خاصة بالمؤسسات الاسلامنّة ، فقد أصبحت الآن عديدة ، كدار الإفتاء والإدارة العامة للشعائر الدينيّة ، والمجلس الإسلامي الأعلى ، ثمّ الجامعة الزيتونيّة ، إسوة بما هو موجود في كل الدول العربيّة والإسلاميّة ، وتمكينا لمؤسساتنا التربويّة الأخرى ، وهي عديدة أيضا ، من أن تعمل وسط مناخ ، يسوده التفرّغ المتخصّص ، بعيدا عن أي حساسيات ، لم تزل مع الأسف ، عالقة ببعض النفوس ، شئنا أم أبينا .

إن الحديث عن الزيتونة ، ونضالات أبنائها ، وإشعاعها العلمي والتربوي في القديم والحديث ، لا ينبغي أن ينسينا واقعا مرّا ، وحقيقة قاسية ، مازالت تمارس علنا وجهرا ، وتحدث تأثيرها السيء في كثير من الأنفس والعقول ، وفي قطاعات عريضة من مجتمعنا التونسي ، ولقد حان الوقت لعرض سلبيّاتها ، وكشف مضارّها ، وإبراز نواحي ضعفها وقصورها ، التي أخلّت كثيرا بوحدتنا الوطنيّة ، وبما ينبغي

أن يسود كل مواطنينا من أمن سابغ ، لا يفرّق بين هذا الذي تخرّج من معهد مدرسي حكومي ، وذاك الذي تخرج من معهد زيتوني شعبي ، ولعل الانطلاق من حالة معينة ، يفيد كثيرا في الذي أشرت اليه منذ قليل ، فقد عرف الدكتور الطاهر الخميري في كتاباته وأحاديثه ، بأسلوبه النقدي الساخر ، وإيجازه الطريف ، الذي يعالج كثيرا من قضايا الفكر والواقع . فلطالما امتع قراءه على أعمدة جريدة الصباح الغراء بفصول في الثقافة والاجتماع ، أحدثت صدى حسناً في كثير من الأوساط ، صار بعدها شخصا مرموقا تستحبُ استشارته ، ويسعى إليه بكل احتفال ، اجتمع اليه بعض المثقفين ، من محبّي الأدب ، واستطلعوا رأيه في التفرقة التي تصنّف الدارسين إلى فريقين ، مدرسي وزيتوني ، وما يصيب الفريق الثاني من غبن شنيع لا وجه له بحال ، فقال بطريقته " إني تجاوزت الكهولة الآن ، وقد طوّفت في بلاد كثيرة غربيّة وشرقيّة ، فنلت من الشهائد ما أحببت ، وأتقنت من اللغات ما أردت ، وساهمت من موقعي في قضيّة الكفاح التحريري بما استطعت وأنتم تعلمون أني عدت إلى بلادي فور استقلالها وتعلمون كذلك أني مازلت مهمشًا اجتماعيا وإداريًا ، أتدرون ما هو السبب ؟ إنهم لم يغفروا أني درست

هذه الواقعة رواها لي العديد من أصدقاء الدكتور الخميري وهي تكشف بايجازها ، عن طبيعة العقليّة الغريبة الغامضة ، التي استبدّت بتونس عقودا ثلاثة ، فشطرت مجتمعنا نصفين ، بأحكام مبتسرة ، وتحليل متعسّف ، ورؤية حقود ، وأن النظرة المتأنّية إلى واقعنا الاجتماعي والسياسي والإداري، لتكشف لك بكل وضوح عن حجم المأساة التي عاشتها الأجيال العديدة ، من خرّيجي الزيتونة ، فقد منعوا من مواصلة دراستهم في الجامعة التونسيّة ، ولمّا هاجروا إلى الشرق وإلى الغرب ، حرم كثيرهم من منح تعطى لغيرهم دون حساب ، وحوصروا في مهاجرهم حصارا ، اضطرهم إلى نفي اختياري ، كان دوما البؤس الذي لا ينفرط له عقد ، وإذ يعودن إلى أرض الوطن ، مزهوين بأرفع الشهائد ، من أرقى جامعات العالم ، في مختلف التخصصات ، فسريعا ما يؤطّرون في هذه الوظائف المحدّدة،

فلا يخرجون من حدود ها أبدا ، أستاذ الآداب الجامعي ، يحال بينه وبين التدريس في كليّة الآداب ، وأستاذ التعليم الثانوي ، لا يملك إلا أن يبقى أستاذا في إطاره ، لا يتجاوزه إلى مصلحة أو إدارة أو مسؤوليّة تربويّة هامة ، حدثني من

هامة ، حدثني من أثق به ، أنه حضر اجتماعا إداريًا في وزارة التربيّة في عهد لها سابق ، للنظر في مطالب المترشحّين لإدارة المعاهد الثانويّة ، ففوجئ بقوائم الترشّح ، مصنّفة حسب الجامعات التي تخرجوا منها ، فهذا زيتوني وذاك مشرقي ، وذلك تونسي ، وبالطبع فالنتيجة معروفة مسبّقا ، وهذه الممارسات ليست سراً ، ولا أمرا يتمّ في الخفاء ، فأحد وزراء التربية السابقين ، كان يحدّث من يعرف ومن لا يعرف ، أنه لا يفهم كيف توضع الدكتوراه فوق العمامة ، يشير بذلك ، إلى أن دارس التعليم الثانوي الزيتوني ، غير مؤهل بفطرته التعليميّة لاستعاب المناهج الحديثة ، وعلوم العصر التي تدرّس في هذه الجامعة أو تلك من جامعات العالم .

وبطبيعة الحال ، فان القضيّة لها أسبابها المعروفة في تاريخنا التونسي الحديث ، وبالتأكيد ليس لها صلة بحداثة أو تجديد ، والدليل على ذلك ، أن التعليم الذي أرسي عقب الإستقلال ، كان مفرّغا من كل محتوى ، يشدّ التونسي إلى أرضيته التاريخيّة والحضاريّة ، بل إنه يسعى به شيئا فشيئا ، إلى الاقتراب من تلك البلاد البعيدة التي سلبت التونسي لفترة طويلة ، من حق السيادة واتخاذ القرار ،

وتركيز المؤسسات الديمقراطيّة القادرة وحدها على تمثيل الشعب ، مدار القضيّة إذن هو الصراع بين قوتين ، قوة تؤمن بجذور هذه البلاد ، وصلتها العميقة بما حولها من بلاد عربيّة وإسلاميّة ، وإن تقرير المصير الحقيقي إنما يتمّ على هذا الصعيد ، ووحده فقط ، وقوة ثانية فوقيّة ، ترى أن كل قديم بال ، قيما وأخلاقا وعادات ، وأن النهضة لن تكون إلا بتقليد مايجري هناك ، لقد أثبتت الأحداث الجارية عبر الثلاثين سنة الماضية ، فشل تلك السياسة الفوقيّة وتبيّن كم كانت واهمة في مخططاتها وأطروحاتها ، بيد أن آثارها مازالت موجودة ، وسيتعيّن على شعبنا أن ينهض ، لإعادة الأمور إلى نصابها ، وتثقيف المعوجّ حتى يستقيم ، وتقويم المنحرف ، حتّى يؤوب إلى الرشد .

العربيّة في مناهج التعليم

يلاحظ الكثير من الأساتذة والنقاد ، أن مستوى خريجي التعليم الثانوي ، في مادة اللغة العربيّة وآدابها ، يزداد رداءة سنة بعد أخرى ، ويقدمون أسبابا متعددة تتخذ هذه الوجهة أو تلك ، ولكنها تنتهي دائما إلى حقيقة مؤكدة ، مؤداها أن العربية لا تحتل في التعليم التونسي ، ولا في البيئات الاجتماعيّة والإداريّة ، مكانتها الطبيعيّة ، باعتبارها اللغة الرسميّة التي تستوعب خصائص شعبنا الحضاريّة ، وأنها الأداة الأولى للإبداع والتعبير والإبلاغ ، حتّى وقر في بعض النفوس ، أنها عاجزة بالفعل عن ممارسة دورها في الحياة العصرية ، كلغة علم وتعليم وتكنولوجيا .

هذه الملاحظة ، حقيقة من حقائق الواقع المعيش ، نعرف مفرداتها في شتى المجالات والمناسبات ، فنحن مضطرون إلى الفحص الدقيق ، والتعمّق في معرفة خلفياتها البعيدة ، حتى يتيسّر الحل ، وتتضح سبل الإصلاح المنشود ، إنقاذا لأجيالنا من الضياع ، وخدمة للكيان الاجتماعي الذي نريده متماسكا ، فاعلا في التاريخ بحقّ ، والنظرة الفاحصة إلى

برامج التعليم الثانوي وإلى مادة العربية وآدابها بخاصة ، تعطيك انطباعا واضحا ، بأن هناك جناية بالفعل ، ارتكبت بحق أجيال كاملة ، وأنه قد خطط لها بدقّة ، حتّى تكتمل فصول مأساتها ، فقواعد اللغة اختصر تدريسها في ثلاث سنوات فقط ، وهي مدة لا تكفي بحال ، لأن يحسن صاحبها مجرّد الإلمام بتراكيب الجمل ، وما تشتمل عليه من عناصر أصليّة وفرعيّة فضلا عن أن المصطلحات الجديدة التي أقحمت إقحاما دون مبرّر جعلت تلاميذنا لا يحسنون الاستفادة من كتب القواعد التي ألفت قديما وحديثا ، مما اضطر أساتذة العربية في الجامعة ، إلى تخصيص جزء من الوقت ، لتدريس طلأبهم أبجديّة القواعد حتّى يكونوا في مستوى المواد الجديدة التي يدرسونها ، علما بأن هؤلاء الطلاب سيصبحون بعد حين ، أساتذة يشرفون على حظوظ أجيال بأكملها .

وحظ النصوص الأدبيّة ، ليس بأحسن من قواعد اللغة ، فقد تقلصت المادة الأدبيّة تقلّصا عجيبا ، انتهى بها الأمر إلى أن تدور حول قضايا ومحاور ، النص القديم إلى جانب الجديد ، فافتقدت ذلك التسلسل الزمني ، الذي يمكّن الطالب الدارس من معرفة طبائع تطور أساليب النصوص ،

وخضوعها مرحلة بعد مرحلة ، إلى عوامل مؤثرة لها دورها ولا شكّ ، في كل مبنى ومعنى ، فاذا علمنا أن توجيهات البرامج الرسميّة ، تؤكّد على النص وحده دون صاحبه ، ودون العصر الذي ظهر فيه ، علمنا السطحيّة والفراغ الذين يخرج بهما دارس هذه المادة ، ونتيجة لكل ذلك ، ضاقت برامج الدراسة في الثانوي عن أن تستوعب الكثير من الكتّاب والشعراء والمبدعين بعامة ، واكتفت بأشتات متفرقة ، من هنا وهناك ، لا يمكن أن تمثل بحال من الأحوال ، الحركة الأدبيّة في مختلف عصورها ، أذكر لك مثلين فقط ، أحدهما قديم ، وثانيهما حديث ، فقد أغفلت البرامج شعراء ثلاثة من أعظم شعراء العصر الأموي ، هم جرير والفرزدق والأخطل ، ولا أدري كيف يفهم طلابنا ذلك العصر ، بما اضطرب فيه من أحداث ، وما خضع له من ألوان الصراع والخطوب ، دون أن يتدارسوا شعر أولئك الشعراء وما يعكسه من آراء ومذاهب وعصبيّات ، قبليّة وغير قبليّة ، وهل يمكن لهم أن يفقهوا وجوه التطور اللغوي والفنّي في العصور التّاليّة ، عباسيّة وغير عباسيّة دون أي مقارنة ؟ وأهملت البرامج في العصر الحديث ، شعراء وأدباء من الطراز الأول ، كما يقولون ، وبالذات أحمد شوقي أمير الشعراء وحافظ إبراهيم

شاعر النيل ، وخليل مطران شاعر القطرين ، هؤلاء الثلاثة الذين جدّدوا الشعر وأرسوا مدرسة ، مازالت لها السيادة في كثير من أجزاء الوطن العربي ، وابتكر الأول منهم ، فنًا قائم الذات هو المسرح الشعري، الذي تغنّى فيه بفترات جميلة من التاريخ العربي ، وتغنّى الثاني بعبقرية اللغة العربية ، وترجم الثالث مسرحيات شيكسبير الخالدة ، وخلت البرامج من كبار نقّاد العربية ، العقاد وشكري والمازني ، هؤلاء الذين عرفوا بجماعة الديوان ، وأدخلوا الحداثة الحقيقيّة إلى أدبنا العربي ، وإني لأعجب ألاّ يعرف طلابنا هؤلاء العظماء ، خاصة حين يشاهدون مؤلفاتهم تملأ المكتبات !

غير أن الأمر يزداد اضطرابا وغرابة ، حين تطرح القضيّة بشكل آخر ، وبحضور وزير التربية والتعليم والبحث العلمي (أوائل ديسمبر سنة 1987) إذ اشتكى البعض من تردّي اللغة الفرنسيّة ، وهبوط مستوى خريجيها ، في الثانوي والجامعي أيضًا ، وأرجع هذا إلى البيئة الإعلاميّة والثقافيّة ، وإلى البيئة الإجتماعيّة بصفة عامة ، التي لا توفّر للتلميذ المناخ اللغوي الفرنسي السليم ، الذي يساعده على إتقان فرنسيّته كما يجب !

والحق أني استغربت أيّما استغراب ، بكاء المتباكين على اللغة الفرنسيّة ومستوى تلاميذنا فيها ، وتصوّرت نفسي في محفل فرانكفوني ، يتواصى فيه كهّانه ، بالإخلاص الدائم ، والولاء المطلق ، لتلك الأمّ التي لم يكن لبنهـــا دائما ، إلا اصطناعيًا خاويا من أي غذاء ، وإن استغرابي ليـزداد اشتدادا ، عندما يطرح مثل هذا الطرح ، ونحن نباشر عهدا جديدا ، كل الدلائل تشير فيه ، إلى أنه سيضع كل شيء في نصابه ، فقد ولّى عهد الاختيارات الفرديّة ، وانقضى زمن أن الشعب التونسي لا يعرف مصالحه الحقيقيّة ، ولا يعرف كيف يفكّر في واقعه ومستقبله ، إن ذاكرتنا مازالت تعي جيدا ، كيف ضربت العربية في بلادنا ، حينما أغلق جامع الزّيتونة الأعظم ، وفككت مؤسساته الواحدة تلو الأخرى بدعوى توحيد التعليم ، ووسط ضباب دعائـــي أجوف ، بأن التعليم الزيتوني رجعي ومتخلّف ، ولا قدرة له على التطور والإصلاح ، ولقد بلغت هذه المغالطة مداها ، حين رفضت نواة الجامعة التونسيّة ، في بداية الستّينات ، قبول حاملي الشهائد الزيتونيّة ، مما اضطرهم إلى الهجرة شرقا وغربا ، لاستكمال دراساتهم الجامعيّة والعليا ، واثبتوا للجميع اقتدارهم وتمكّنهم ، وجدارتهم

مستوى المؤهلات العلميّة التي يحملونها ، بل إن هذه المطاردة الظالمة ، لم تتوقف عند هذا الحدّ ، فقد أبعد حاملو الشهائد العربية من الاضطلاع بأي مسؤوليّة تربويّة أو إداريّة أو سياسيّة ، إلا في الحدود الدنيا ، وحشروا حشرا في زوايا خانقة ، وأركان مظلمة ، تؤكد لك بأنهم مواطنون من درجة ثانية إن لم تكن أكثر ، أمّا الزيتونيون الذين توفّر لهم أن يدرسوا بأوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي ، وعادوا بشهادات راقية في أعلى مستواياتها ، فانهم أخضعوا لنظام عجيب ، حرمهم من مباشرة اختصاصهم ، وأدمجوا إدماجا في هذه المؤسسة أو تلك ، وبذلك أهدرت منهم الطاقات وهمّشوا تهميشا ، لا تخطئه العين هنا وهناك .

إن عهد القهر قد ولّى ، وها إن مظلمة كبرى مازالت مهيمنة على بلادنا وتعليمنا ، وعلى أجيال عديدة من أبناء شعبنا ، فلنفتح هذا الملفّ ، ولنقرّر القرار الحكيم الصائب ، وهو أن العربيّة هي لغة العلم والتعليم ، وأن الفرنسيّة أو غيرها من اللغات ، ما هي إلا لغة ثانية ، لا غير .

في غياب السلطة الفكريّة والنقديّة

بدأت حياتنا الأدبيّة والثقافية تعرف منذ سنوات ، ألوانا من الصراع الفكري الحقيقي ، وفنونا من الحضور الثقافي الغامض ، الذي يتوسع ويتقلّص ، حسب تغيرات الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسيّة ، وقد أدى هذا إلى ظهور تيّارات أدبيّة وفكريّة عديدة ، يمكن العثور عليها في هذا الأثر أو ذاك من آثار الأدب والنقد ، بيد أن الذي يلفت النظر حقّا ، هو غياب السلطة الفكريّة والنقديّة ، التي يصحّ الاحتكام اليها ، وتنتهي أمامها أوجه التأويل المختلفة ، لذلك تمضي حياتنا الأدبيّة والثقافيّة في مسارات يصعب أن تلتقي في مصبّ واحد ، أو أن تترك تقاليد أيجابيّة ، تفيد اليوم وغدا ، بل إن هذه الحياة أصبحت تغري ، الكثيرين من ذوي العواطف الجامحة ، والنوازع الغامضة ، فتدفعهم دفعا إلى القول العريض ، والرأي الخطير ، والدعوى اللاّ معقولة ، حتى بات القراء بمختلف طبقاتهم ، لا يدرون ما يفعلون .

ففي خلال أيام متقاربة ، قرأت بجرائدنا التونسيّة ، أحاديث ثلاثة ، تعكس بدقة ما حاولت الإشارة اليه منذ

قليل ، فهذا الشاذلي السّاكر ، تحاوره جريدة الأيـــــام (8 جانفي 1987) عن تقييم مساهمته في علم النفس ، فيجيب بالحرف : بأن مساهمتي في هذا الميدان ، لا تضاهيها أية مساهمة أخرى ، بما في ذلك مساهمـــــة « فرويد » لأنني قمت بعمليّة توحيدية بين كل علوم النفس وفروعه وروافده ... وإني أترقب الآن مبادرة من هنا وهناك ، أي من أية جهة أو مؤسسة من الوطن العربي ، لعقد ندوة علميّة عالمية ، أتمكّن فيها من بسط بنظريات وأركان هذا العلم الجديد ومن شرحها ، واعتقد أنها ستكون خطوة هامة جداً ، لا فحسب بالنسبة لي ، بل وأيضا للتدليل على أن العقل العربي ليس بالعقيم »

قرأت هذا الكلام وأعدته قصداً ، لمعرفتي بأن بعض الأحاديث قد يدخلها شيء من الاضطراب ساعة النشر ، ولكن الرجل يمضي مستبسلا في موقفه ، كما تجلّى لي ذلك في نهاية حديثه ، إذ يقول : « إن الأرض التي أنبتت ابن سينا والبيروني والخوارزمي وابن خلدون ، مازالت قادرة على الإنجاب ، فهل من جامعة عربيّة ؟ أو مؤسسة مثـــل الألكسو ، تستجيب لهذا النداء ؟ إذن نحن إزاء ظاهرة علميّة خارقة ، تقف بشموخ أمام أعلام الفكر الإنساني ،

ولكنّي أحبّ ان أكون جاداً فأسأل الرجل هل تعرف أن علم النفس الذي تزعم الابتكار فيه ، هو علم مخبريّ بالأساس ، وأن الأبحاث فيه تتمّ حسب تراتيب منهجيّة صارمة ، اعتمادا على تجارب معيّنة ، يقوم بها فريق أو أكثر من أهل العلم والاختصاص ، أطباء وغير أطباء وحسبما أعلم فان صاحب النداء ، هو موظف بأحدى دور الثقافة ، وأن تكوينه العلمي لم يصل به إلى المعاهد المتخصصة في تدريس علم النفس والعلوم الأخرى المتصلة به ، ومن وجه آخر ، فان القول لا يستقيم بأن مساهمته لا تضاهيها مساهمة أخرى ، بما في ذلكن مساهمة « فرويد » والمدارس الأخرى التي أقامت هذا الصرح الشامخ من العلم الدقيق ، والبحث المبتكر ، والاكتشاف الذي غيّر معطيات كثيرة عن النفس الباطنة والظّاهرة .

وهذا حديث آخر ، نقلته جريدة « العمل » عن ندوة نظمت بمركز ثقافة بلديّة تونس ، تكريما لعزّ الدين المدني ، فقد قال أحدهم ، إن عزّ الدين المدني تجاوز أرسطو، الذي جمّد المسرح قرونا عديدة ، وصرّح المدني نفسه بان الكتابة فعل ناريّ ، وأن عنصره الروحي من نار ، وروى لي أحد الحاضرين (وهذا لم يرد بجريدة العمل) أن محمــود

طرشونة ، تساءل عن معنى التهجّم على أساتذة الجامعة ، في مسرحيته « البحر الوافر » فأجابه المدني بأن التهجّم لا ينصرف إلى أساتذة الجامعة التونسيّة ، وإنما إلى أساتذة جامع الزيتونة ، طرح هذا الكلام بحضور أدباء وشعراء وأساتذة من كليّة آدابنا ، في مقدمتهم توفيق بكّار ، ولم يتصدّ أحد للتقويم والتصويب والايضاح ، فهل معنى هذا أن كل الذي قيل هو من باب البدهيات المسلمة !! الذي أعلمه ويعلمه غيري من المثقفين ، أن الدراما الحديثة ، هذه التي تشيع الآن في المسرح الحديث ، غربا وشرقا ، ليست من ابتكار المدني ، ولا أي كاتب عربي آخر ، وإنما هي نتاج أوروبي ، استعاره كتّابنا ، كما استعاروا ألوانا اخرى من الأدب والفن ، ثمّ من هو المدني حتّى يقارن بالمعلّم الأول ، الذي وضع أصول العلم والفلسفة والمسرح والشعر والخطابة ؟ يبدو أن الكثير من أساتذتنا ، أصبحوا لا يفرقون بين التشجيع الأدبي والنقد الجادّ ، وبين التكريم المجامل ، لأن السكوت عن الغلوّ والغرور ، وإلقاء الكلام على عواهنه ، لا يؤدي إلا إلى معنى واحد ، هو فقدان الصدق الموضوعي ، والصراحة المنهجيّة .

أمّا الخبر الثالث ، فهو ما تناقلته بعض جرائدنا ، ومجلّة

« الأخلاء » في بعض أعدادها الأخيرة ، من أنّ ملتقى الشعر بالجريد ، قد توّج يوسف رزوقة أميرا ، نعم أميرا !

وهكذا فقد انتفت النسب بين الأشياء ، وفقدت المقاييس دقّتها ، وخلت الساحة للأدعياء والمغامرين يقولون ما يحبّون ، دون الإحساس بما يترتّب على ذلك ، من سخريّة مرة أو غير مرة ، تصدر عن هؤلاء وأولئك ، ودون الشعور بأنهم يسيؤون إلى أنفهم قبل الإساءة إلى غيرهم من القراء ، وكما هو واضح ، فان هذا يتمّ وسط غياب شبه كامل ، لما أسميته بالسّلطة الفكريّة والنقديّة ، التي نجدها في أقطار عربيّة عديدة ، شديدة اليقظة والاستعداد وحتّى تتأسّس هذه السلطة ، وتمتلك مقوّماتها الموضوعيّة ، وتباشر مسؤولياتها بكل صدق وإخلاص ، فانّ القراء ينبغي أن يتصدّوا لكل خلل ، يرونه هنا وهناك ، وأن يعبّروا قولا وفعلا وكتابة ، بما يتراءى لهم أنه الصّواب والحق .

ولعلّه يحسن هنا ، أن أتوقّف لبيان معنى السلطة الفكريّة والنقدية ، الذي أقصد ، وأن أشرح الأسباب التي أدّت إلى ذلك الغياب ، وأسرع فأوضّح ، أنّ معنى السلطة عندي ، ليس هو الذي يحدث بقرار ، أو يصدر عن هذه اللجنة أو تلك من اللجان ، التي تفنّن مجتمعنا الثقافي والأدبي في رسمها

وتشكليها وتعديدها ، وإنما هو أعمق وأبعد فهو مجموعة القيم التي انتخبتها ثقافة ما ، وتوضّحت أصولا ثوابت ، في وجدانات وعقول مثقفيها ، وهو ذلك الذوق المرهف الذي يصدر عنه المثقف الممتاز ، وهو يبدع أثره ، أو يقلّب نظره في آثار غيره ، من كتّاب وشعراء وفنّانين ، وهو مجموعة المناهج الصحيحة التي تعالج بها الآثار الأدبيّة ، فيبقى منها ما هو صالح للبقاء ، ويختفي ما هو جدير بالاختفاء ، وبالطبع فان هذه الأشياء لا تشكّل معنى محدّدا للسلطة إلا بالحضور الدائم ، والمساهمة الفعّالة ، والمواجهة المستمرّة ، لكل ما هو عاجز وغريب ، عبر مفكرين ، نقّاد لا هدف لهم إلا توكيد ما يجب توكيده من أعمال تنفع وتمتع وتفيد ، وتقرر ما يترسّب في أعماق النفس الشعبيّة ، من توق إلى الأفضل والأعدل والأكمل ، وإلاّ محاكمة الفجاجة والقول الهابط الذي يداهن ويجامل ، أو يندفع عشوائيًا ، فيعربد ويدّعي ، دون أن يكون وراءه شيئا مذكورا .

هذا المعنى السلطوي للفكر والنقد ، لم يتشكل بعد في حياتنا الأدبية والثقافيّة ، ولا يغرنّك ما تلاحظه في بعض الأحيان أو كثيرها ، من قيام مجموعات مثقّفة ، متفرقين هنا وهناك ، للحديث عن كاتب أو شاعر أو فنّان ، فإنّما

الهدف هو التكريم ليس غير ، وهو التلميع الذي يهيّئ لاحتلال منصب ما ، من هذه المناصب التي تغري وتثير ، أو هو إن شئت ، تعميد فرد أو مجموعة ، لملء فراغ ثقافي ، تتجدّد مناسبته ، بين كل فترة وأخرى من حياتنا الاجتماعيّة والثقافيّة .

بيد أن السؤال المركزي ، الذي يتجدد لدى القراء ، وأحب مناقشته هنا ، هو : ما هي أسباب غياب هذه السلطة الفكريّة والنقديّة ؟ وما الذي جعل كثيرا من كتّابنا ومفكرينا ومثقفينا ، لا ينهضون بمسؤوليتهم الواجبة ، إزاء واقع أدبي وثقافي ، يتطلب باستمرار ، التقويم والمعالجة والتوجيه ؟

الأسباب في نظري عديدة ، أو بإمكان قرائنا ملاحظتها ، لأنها مستشرية في حياتنا الثقافيّة ، ومتجذرة منذ وقت بعيد ، وبإجمال يمكن حصرها في صحفنا ومجلاتنا وجمعياتنا ، وبالأساس اتحاد الكتّاب ، وسأبدأ ببيان مسؤوليته في هذا الذي يحدث بيننا ، لقد تأسّس الإتحاد . لخدمة الأدب والثقافة ، ككل الاتحادات الأخرى في العالم ، شرقا وغربا ، فلتفتح قانونه الأساسي ، ولتقرأ البند الثالث من الفصل الثاني ، الذي جاء فيه : « يحجّر الاتحاد على نفسه إصدار أحكام باسمه ، على قيمة إنتاج أعضائه ، أو

تبنّي تيّار فكري أو أدبي معين » فكيف يترشح الكاتب إذن لعضويّة الاتحاد ؟ البند الثاني من الفصل الرابع ، يقرر الكيفيّة التي بمقتضاها يصبح العضو عضوا ، أولاً بأن « ينشر له كتاب على الأقل ، ابتكارا كان أو دراسة أو ترجمة أو تحقيقا ، ويمكن قبول من ليس له كتاب مطبوع وتوفر انتاجه الفكري » ثانيا : « وافقت الهيئة المديرة على إسناد العضوية العاملة إليه ثالثا : « سلّم لخزانة الاتحاد نسخة من كتبه المنشورة » رابعا : « زكّاه عضوان عاملان من أعضاء الاتحاد » .

عنصر التقييم هنا غائب أصلا ، في قبول الأعضاء ، بل إن الاتحاد يحجّر على نفسه إصدار أحكام باسمه ، على قيمة إنتاج أعضائه ، من هي إذن السلطة الأخرى التي تتولّى ذلك ؟ إن هذا من أغرب ما نعلم ، فالذي يحدث في كل اتحادات العالم الأخرى ، أن تتولى لجنة مشهود لأعضائها بالخبرة والاقتدار ، فحص إنتاج المترشّحين ، فحصا دقيقا ،ثم تقرّر ما تراه صالحا ، وقد أدّى هذا إلى اختلاط الحابل بالنابل ، كما يقولون ، وصار حامل العضويّة - في الغالب - يكتب ما يريد ، بالأسلوب الذي يتراءى له ، دون توقّع حساب عسيراً وغير عسير ، ولعل القراء يتذكرون منذ

سنوات ، أن عددا من الكتّاب انزلقوا في مآس فكرية ، وأدبيّة ، أهونها السرقات الموصوفة ، التي قامت عليها براهين مؤكّدة ، تجاوز صداها بلادنا ، إلى بلاد أخرى ، عربيّة وغير عربيّة ، ومع ذلك فان الاتحاد لم يتوقّف ، ليدرس هذه القضايا ويتخذ منها موقفا ، إن دواعي ذلك تكمن ، في أن الاتحاد يغلّب السياسي على الأدبي الثقافي ، فهمّه العدد والكثرة ، وتجميع الكاتبين ، مهما كانت طبيعة كتاباتهم ، مستوى هابطا أو غيرها بط وفي اعتقادي أن هذا خطأ ، ينبغي إصلاحه ، فالاتحاد جمعيّة أدبيّة ثقافيّة بالأساس ، ودوره يتحدّد بنظري ، في تأصيل القيم الفكريّة والأدبيّة الصحيحة ، وتوجيه الأجيال الشابة ، من الكتّاب وغير الكتّاب ، للدفاع عن ثقافتنا الوطنيّة والقوميّة .

« اللّحمة الحيّة » مازالت حيّة !

طلبت جريدة « الصباح » الغراء ، من عدد من مثقفينا ، سبعة كتّاب وسينمائيين ، أن يسجلوا انطباعاتهم وآرائهم عن السنة الثقافية التي انتهت ، وأن يبرزوا ما فيها من سلبيٍّ وإيجابي ، بعيدا عن أي مجاملة أو انتقاد ، لأن الهدف كما قال صالح الحاجة : أن يحاكموا سنة 1986 ، محاكمة ثقافيّة حرّة ، ورغم أن الإجابات أتت موجزة ، لطبيعة المساحة المحدّدة ، التي تقتضيها صفحة ثقافيّة تصدر في غـرّة السنة ، إلاّ أنها قدمت آراء فيها الكثير مما يستحق الوقـوف عنده ، وفيها ما يعكس الكثير من الآراء ، التي تزدحم بها ساحتنا الثقافيّة ، وهي تدلّ في النهاية على هويّة أصحابها ، وطبيعة علاقاتهم بالأعمال الثقافيّة ، بل ومواقعهم من الجهاز الثقافي الضخم ، الذي يدير ويخطط ، ويفسح المجال ويضيقه ، حسب مقتضيات الفصول والمناسبة..

ليس من هدفي هنا ، قراءة وصفية للآراء ، لأنّ القراء اطلعوا عليها ولا شكّ (عدد الخميس 1 جانفي 1987) وإنما هدفي أن أتوقف عند بعض الآراء ، التي رأيت أنها تثير بالفعل ، قضايا أساسيّة في الواقع الأدبي والثقافي

بتونس ، وأن ظروفا غامضة متنوعة ، أقامت جدارا حولها جعلت من الصعب اقتحامه والوصول إلى ما خلفه ، فقد أثار المنجي الشملي في كلمته ، قضيّة اللغة التي يكتب بها كتّابنا آثارهم الإبداعيّة ، وأعلن بصراحة : « أن الأمر المزعج حقّا في هذا الإنتاج ، هو ضعف اللغة التي يعتمدها أصحابه ، فانك لا تكاد تقرأ كتابا باللغة العربيّة ، بدون أن تخرج منزعجا آسفا ، حزينا لما آل اليه أمر الكتابة عندنا » وهو لا يحبّ أن يكون قاسيا ، كقسوة ـ شارل بيلاّ ـ الذي صرّح أنه لم يبق من اللغة العربيّة في تونس إلاّ الأحرف ، ومع ذلك ـ يقول المنجي الشملي ـ « إن اللغة العربية مريضة لدى أهلها في بلادنا ، وكأنها غريبة عند من يستعملها ، قواعدها أصبحت عندهم لا تطبق وإن هم حفظوها ، الأسلوب العربي انتفت عنه صفة العروبة ، والتعبير العربي أصبح تقليداً للتعابير الأجنبيّة » ، هذه قضية أساسية دون شك ، تعرقل حركة الأدب العربي في تونس ، وتجعله كسيحا لايقدر على الحركة الصحيحة فضلا عن الرشيقة ، وإذا كان الكثير من أدبائنا وكتّابنا ، لا يهتمّون بما ينبغي أن تكون عليه الكتابة الأدبية من صحّة ، ولا يكترثون بأن التواء التعبير وسقمه ، لا يؤدّي في النهاية إلاّ إلى ضياع الصورة والفكرة ، وبالتالي بلبلة القارئ ، ودفعه دفعا إلى البديل الآخر ، في

الآثار الأدبيّة العربيّة والأجنبيّة ، بل إنه يسيئ إساءة مؤكدَة إلى الحركة الأدبيّة العامة ، التي تنجز في بلادنا ، فقد كنت في زيارة لسوريا الشقيقة ، أتحدث مع جمع من كتّابهـا بمقرّ اتّحاده كتّابها العام ، وبحضور الأستاذ علي عقله عرسان ، إذ فاجأني الدكتور حافظ الجمالي بقوله : إن كتّاب تونس لا يحسنون استعمال المفردة في موقعها من الجملة ، ولا يحسنون استعمال الجملة في سياقها من النص ، ولمّا قلت له : هل كان اطلاعك على الإنتاج الأدبي التونسي كافيا ، حتى تقول ما تقول ؟ صرّح لي أنه عاد لتوّه من تونس (صائفة 1986) وأنه قرأ أشياء عديدة ، واستمع الى أحاديث ومناقشات من أجيال مختلفة ، وبالطبع فقد حدّثته عن أن الأمر يبدو في الظاهر هكذا ، لطغيان حركات ليست في الحقيقة أدبيّة ، ولغلبة آراء ودعوات ، ليست في جوهرها أصليّة ، ولقيام بعض المؤسسات ، لا همّ لها إلاّ تحطيم العربية وآدابها ، تمهيدا لقيام عربية هجينة وأدب محليّ ، يكون حجة أخرى في أيديها ، لعزل تونس عن مجالها العربي القومي .

فما هي الأسباب ؟

عدّد المنجي الشملي أشياء ، كمسؤوليّة النظام التربوي

والإعلامي ، وسوء تنشئة الطفل ، ولكنه ترك شيئا هاماً وخطيرا ، هو مسؤولية كليّة الآداب بجامعتنا التونسيّة ، أو فلنقل مسؤولية بعض أساتذتها ، وهنا سأكون جدّ صريح ، لأن الأمر يتعلق بقضيّة مركزيّة ، تتجاوز الأدب إلى الإجتماع والسياسة ، فكلنا يذكر أنه في منتصف الستّينات ، تزعّم توفيق بكّار وصالح القرمادي ، وغيرهما من أساتذة كليّة الآداب ، حركة ماسمّي بالطليعة ، وأخذوا يدعون إلى أدب ، لا يتقيّد بشكل معيّن من أشكال الأدب السائد بالمشرق والمغرب العربيين ، بل ينبغي له أن يكون متجاوزا أبداً ، لا أهميّة لسلامة اللغة ، ولا اعتبارٌ للوزن الشعري ، حراً كان أو غير حرّ ، وهكذا واجهنا الطوفان في الصحافة والنوادي وأجهزة الإعلام المختلفة ، وقدّم صالح القرمادي نماذجه الجديدة ، مجموعة في كتابه « اللحمة الحيّة » وكتب توفيق بكار منظرا للأدب الجديد ، ومترجماً له في جريدة « لوموند » الفرنسيّة ، وبارك الأب جان فونتان ، فرسان الموجة الجديدة ، وأعلن أنهم يرنون بأفكارهم ومشاعرهم إلى أوروبا وفرنسا بصفة خاصة ، وترتّب على ذلك ظهور موجات أخرى من الكتّاب والشعراء ، لا ترى التجديد إلا في كسر القاعدة والسخريّة من أصالة اللغة ، ورغم أن شيئا من الخيبة

أصيبت به تلك التجارب ، وأنها وجدت نفسها في النهاية ، أمام طريق مسدود ، من الصمت والإعراض والازدراء ، ورغم أن بعض الأفراد حاولوا الخروج عن هذا الانغلاق والتقوقع ، فان آثار التشوّه اللغوي والأسلوبي ، بقيت مرتسمة على محاولاتهم الجديدة ، فمسؤوليّة بعض أساتذة كلية الآداب إذن واضحة .

أنا شخصيًا كتبت الكثير ، معترضاً وناقداً ، وكتب غيري من الأدباء كذلك ، ولكن الأمر بدا كأنه ظلام لا يريد أن ينقشع ، هل نيأس ونتشاءم ونركن إلى الندب والعويل ؟ ، بالطبع لن نقبل بهذا ، بل إننا سنسعى - ونحن نستقبل سنة جديدة - إلى النقد الإيجابي البنّاء ، غير مكترثين بأصوات لا تعي هويتها الوطنيّة والقوميّة ، ولا يهمّها دائما ، أن تضيع طاقاتها ، في مسارب الفجاجة والتعطيل .

كلية الآداب والحياة الثقافيّة

بلغتني أصداء ، من هنا وهناك ، عن الفصل السابق « اللحمة الحيّة مازالت حيّة » فيها رضي ، وفيها عتاب ، وفيها سخط أيضا ، ولم أجد في كل ذلك حرجا ، لإيماني العميق بأهمية الرأي الآخر ، في تعميق القضايا ، وتجديد الحياة والفكر والأدب ، وهكذا فالمقال الذي نشرته « الصباح » (22 أفريل 1987) بعنوان « الجامعيون والحياة الثقافيّة » لعلي السعداوي ، والذي حاول الاعتراض على بعض ما كتب ، وناقشني في بعض وجوه الرأي ، التي أبديتها في الحياة الأدبيّة ، لا مناص لي ، من أن اعتبره حركة إيجابيّة ، لأنه يتيح لي فرصة جديدة ، أوضّح فيها بعض ماقد أجملت ، وليكن معلوما أن الهدف من ذلك ، هو بناء حياتنا الثقافيّة ، بناء سليماً ، لا أثر فيها لغشّ أو نفاق ، فلطالما جنت ألوان المحاباة والمجاملة ، على أوضاع لنا أدبيّة وغير أدبيّة فكرّست حالات ، ما كان ينبغي لها أن تستمرّ ، ودعّمت أشخاصا ، يعلم الجميع حين يخلو بعضهم إلى بعض ، في ساعات المودّة والصفاء ، أنهم لا يمثلون إلا الهزال والضعف ، وإلا الدعاوى العريضة ، التي لا تثبت

لامتحان صعب أو غير صعب .

تضمن مقال علي السعدواي جانبين ، أحدهما يناقش فيه الأستاذ هشام جعيّط . الذي أدان النخبة المثقّفة ، ومنها الجامعيّة ، واعتبرها « في حالة استقالة مميتة » وبالرغم من أن النقاش لم يكن واضحا دقيقا ، وفيه تهافت بيّن ، فاني أدع الأمر للأستاذ هشام جعيّط ، إذ هو أولي بالردّ من غيره ، وثانيهما يتوجّه إليّ فيه بالحديث ، فيؤاخذني بأني اتّهمت كلية الآداب « بالمساهمة في إضعاف العربيّة ، ورداءة الكتابة الإبداعيّة » ويتساءل متعجّبًا ، كيف أتّهم الأستاذين توفيق بكار وصالح القرمادي « مع أنهم هم الذين تفرغوا لتعميق دراساتها ، ودراسات أدبها ـ العربيّة ـ قديما وحديثا ، ونشروا ما نشروا من بحوث ، كان المنتظر أن تكون محل تنويه ، عوض أن تحمل على المؤاخذة والذي يبدو أن صاحب المقال لم يقرأ جيّدا ما كتبت ، فأنا لم أؤاخذ كل أساتذة الكليّة وإنما قلت بالحرف « مسؤوليّة بعض أساتذتها » ، فهناك من الأساتذة ، من يستحق الإعجاب والتنويه فعلا ، بالجدّ الذي عرفوا به ، وبالإسهام الحق في خدمة البحث الأدبي واللغوي ، والتاريخي ، وكثيرا ما أعلنوا كتابة وشفاها ، أنهم غير راضين عن المستويات

الأدبيّة والفكريّة ، التي تغمر ساحتنا الثقافيّة ، ومع ذلك فإن تأثير كليتنا ـ كما هو واضح ـ في الواقع الفكري والثقافي بعامة ، محدود جداً ، سببه ـ فيما أرى - هذه القناعة التي أطمأن إليها أساتذة الكيلة ، والتي جعلتهم يتحركون في مناهج محدّدة ، لا يتجاوزونها إلى غيرها من هذه القضايا الكبرى ، التي تشغل فكر الإنسان العربي ، وهو يجابه التحدّي الحضاري ، كالذي فعل الجامعيون المغاربة ، عابد الجابري ومحمد بنّيس وعبد الله العروي وغيرهم كثير ، فقد غطّوا الساحة الفكريّة العربية ، بأطروحات هامة ، تناولوا فيها التراث والتاريخ والحضارة بالتحليل والنقد ، وأعلنوا مواقف جريئة ، مازالت تهتزّ لها الساحة الفكريّة ، أين نحن من ذلك ؟ نعم هناك أسباب علميّة وأخرى اجتماعيّة ، ولكن هذه قضيّة أخرى ، الدور المحدود إذن ، الذي أراده أساتذة كليتنا لأنفسهم ـ راضين أو غير راضين ـ هو الذي أثّر هذا التأثير المحدود في حركتنا الأدبيّة التونسيّة ، وسنظل ننتظر حتى يتحقّق التغيير الذي تطمح اليه الهمم الشابة من الباحثين .

نعم إني آخذت الأستاذين بكّار والقرمادي ، لأنهما دفعا طلابهما وغير طلابهما ، إلى كتابة جديدة ، هي غريبة حقا

في معناها ومبناها ، عن التجديد الحق الذي نبتغيه ، وعن الإبداع الأصيل الذي ننتظره ، وإني لأشير هنا ، إلى ما ساد الواقع الأدبي زمنا طويلا ، من شعر مكسّر ، لغة وأسلوبًا ، ومن واقعيّة أدبيّة هشّة ، لا تمثّل شيئا في التعبير عن الواقع التونسي أو العربي أو الإنساني أيضا و غاية ما يقال فيها ، إنها حركة رفض مجنونة ليس غير ، والأستاذان المذكوران مع ذلك جيّدان في علمهما وفضلهما ، وهما مقتدران في عربيتهما ، قدرة ليست محلّ نقاش ، ولكنّ القضيّة قضية التوجّه الفكري الذي يأخذان به ، فهذا صالح القرمادي ـ رحمه الله ـ ينشئ مجموعة شعرية ، سمّاها « اللحمة الحيّة » طبعت أكثر من مرّة ، كسّر فيها العربيّة تكسيرا واضحا ، وروّج فيها لهذه النصوص ، التي لا تأخذ بقاعدة عربيّة أو غير عربيّة ، وإنما هو الكلام الهيّن ، الذي يتواتر ليملأ النفوس أسفا ، بالمآل الذي انتهى اليه حال الأدب في بلادنا ، ومردّ ذلك إلى أن الأستاذ ممتلئ النفس والفكر بالعربيّة الدارجة ، يريدها أن تحتل مكانة العربيّة الفصحى هذه التي ظلت حائلا دون التغيير الإجتماعي الذي يؤمن به ، أما الأستاذ بكّار ، فهو وإن لم يكتب نصوصا عاميّة دارجة ، فانه مع ذلك يرعى هذا اللون ، ويدعّمه من كل سبيل ،

وأنت تجد ذلك في التقييم الذي يدرس به نصوصا معروفة ، بل ينظر لها في مواقف التكريم المعلنة وغير المعلنة ، وبعد فان القول يتّسع ويمتدّ و ستأتي مناسبات أخرى لتفصيل أكثر .

في هوية الأدب التونسي

يتصور العديد من القارئين ، أن هذا الصراع الذي تشهده الساحة الأدبيّة والثقافيّة بتونس إنما مصدره الاختلاف حول الأشكال الفنيّة الجديدة ، التي أخذت تتعدّد وتتنوع في كل اتجاه ، تأثرا وتقليدا وإبداعاً أيضا ، أو أن جيلا أدبيًا جديدا يسعى جهده ، بوحي من وعي المرحلة التاريخيّة الراهنة ، لإبداع أدب جديد ، يتجاوز به ما أبدعته الأجيال الأدبيّة التونسيّة الماضية ، وصولا إلى الحداثة والمعاصرة من أجل انطلاقة نوعية ، قادرة بطبعها على تغيير البنى الاجتماعيّة والفكريّة ، التي خضع لها مجتمعنا دهراً طويلا .

إن هذا التصور لطبيعة الصراع الدائر الآن ، لا تعكسه الندوات الأدبيّة المتعددة ، ولا حلقات النقاش حول رأي أو قضيّة ، وإنما صحفنا ومجلاّتنا وكتبنا كذلك ، وبالتّالي فقد أصبحنا أمام قضيّة واضحة المعالم ، تتطلب الحوار والجدل والنقاش ، وتتطلب التحليل الواقعي ، الذي لا يقفز فوق معطيات مدوّنة في الصحائف والكتب ، وفي أعماق الذات الوطنيّة والقوميّة للشعب التونسي ، تلك هي قضيّة الانتماء

الحضاري ، أو حقيقة الشخصيّة التونسيّة ، وحدود انتماءاتها التاريخيّة والمجتمعيّة ، قديما وحديثا ، فما الذي يعكسه هذا الأدب الذي يشيع بيننا الآن و يصفه البعض بأنه جديد وطلائعي ؟

إن هذا الأدب من خلال النصوص التي بين أيدينا ، يعكس الصورة السلبيّة للشخصيّة التونسيّة ، فيقدمها ضيّقة الأفق ، منعزلة حول ذاتها ، مبتورة الصلات والوشائج ، بماض لها تليد ، وتراث جمّ غفير ، ومجال حيوي ، يمتدّ طويلا وعريضا ، فكم هي غريبة عنّا هذه الشخصيّة ، حين تجعلها هذه النصوص الجديدة ، ترطن بعامية محليّة لهذه الجهة أو تلك من جهاتها أو حين تجعلها تتحدّث عربيّة مكسّرة ، يستغربها المستعربون من أهل الاستشراق ، ويتندّر بها الكاتبون في هذه الأرض العربيّة أو تلك ، أو حين تتفرغ جماعة لتأسيس نمط شعري جديد ، لا يخضع لقاعدة معروفة ، ولا يكترث أي اكتراث ، بما تعارف عليه النقاد والدارسون ، والشعراء المبدعون قديما وحديثا ، وإنما هو حوشيّ الكلام يجمع جمعًا ، فيصبّ في دوائر تتكرر ، تسخر وتطعن وتدسّ ، وإنما هو الإيقاع الغامض ، تعزفه آلة موسيقيّة صدئة ، وقد تسأل فيقال لك : إنها مستويات

لغويّة ، واستعمالات يتحدث بها الناس ويكتبون ، ومن ثمّة فلا بدّ أن تجد طريقها إلى الكتابة الأدبيّة ، وهي بالآخر سمة من سمات الإبداع الأدبي التونسي !!

والذي يبدو أن أصحاب هذا الأدب الجديد - وهم معروفون لدى القراء - لا يعون جيّداً ، أن الأدب الحق ، الأدب الجدير بكلمة إبداع وتجديد ، هو الذي يعبّر عن الذات الأصيلة للشعب ، ويستمدّ من حقيقتها العميقة ، نسيج إبداعه وجوهر قضاياه ، والذي ينتهي دائما ، إلى تأكيد هذا الوجود الحضاري الذي ننتسب إليه ، وإلى هذه المعاني الكليّة ، التي جعلت من الشخصيّة التونسيّة ، حلقة هامّة في التاريخ العربي قديما وحديثا ، فليست القضيّة أن يكتب الكاتب والشاعر نصّه ويمضي ، وإنما أن يجعل من ذلك النص إضافة ، تتجدّد بها القيم السائدة أو تتغيّر ، ولكن وفق جدليّة صيرورة الذات الوطنيّة القوميّة في اشتباكها مع أحداث عصرها ، لأن الأديب في كل عصر هو الحافظ للقيم ، الداعي دوما إلى تعميق التيارات الإيجابيّة ، في المجتمع والحياة والتاريخ ، كذلك كان الكبار في عصور الازدهار الأدبي ، وفي انحطاطها كذلك ، تفلسف العرب وأنشأوا ألوانا جديدة من الأدب ، وناقشوا الأمم والأقوام من حولهم ،

ورجعوا إلى تاريخهم القديم ، جاهلي وغير جاهلي ، فوجدوا فيه ما تصحّ به الحجة ، ويقدم بيانا عن مدى أصالتهم في الإبـداع والفكر ، دون أن يتخلّوا عن لغتهم أوأن ينحدروا إلى اللهجات الشائعة بينهم ، ورغم أن ظروفا معروفة مزّقت الجسد الواحد ، وشتّت شمل التواصل بين الكيانات المتعددة ، فان أحدا - فيما نعلم - لم يدع إلى الانعزال أو إنشاء أدب ، يتنكّر حاضره لماضيه ، وينزع إلى وجهة لا يعرف أحد المآل الذي تصير إليه .

وبما أن هذا الفهم الخاطئ ، لجوهر الشخصيّة التونسيّة ، قد أثّر هذا التأثير العقيم ، في كثير من نصوص كتّابنا وشعرائنا ، فقد أدّى ذلك إلى نوع من الجفاء ، نلمسه فيما يحدث من علاقات بين كتابنا وشعرائنا ، وبين غيرهم من أدباء العربيّة ، إلى حدّ القول بأن الأدب التونسي محاصر ، وأن هناك نوايا مبيّتة تتربص به ، لضربه في المهد قبل أن يشتد عوده .

بيد أن قضيّة القضايا ، هي في الجانب الآخر من المسألة ، هي نوعية هذا الأدب الذي يعرض في الأسواق ، هل هو أدب يحقق طموحات قرائنا ، الذين نراهم يتفتّحون بشراهة ، على ألوان أخرى من الأدب العربي والأجنبي ، هم

الآن يتابعون بدقة ، الإصدارات الحديثة والقديمة ، لكتاب أمريكا اللاتينيّة واليابان وتركيا ، ويتسارعون إلى الأنتاج الأدبي العربي في مصر وسوريا والعراق وفلسطين والمغرب ، بل ان في مقدمة هؤلاء القراء كتّابنا وشعراءنا أنفسهم ، إذ أنّك تجدهم يتأثرون خطى هذا أو ذاك من كتّاب الشرق والغرب، أو غيرهم من كتّاب الأرض البعيدة ، لنأخذ الشعر مثلا ، فاني لا أستطيع أن اميّز شاعراً واحداً ، يمكن أن أضعه في مصافّ المعروفين في البلاد العربيّة الأخرى ، نعم إنك تجد بعض القرائح الصافية ، وبعض المواهب التي لا شك فيها ، ينمّ عنها الكثير من القصائد والمقطّعات ، ولكن هذه القرائح وهذه المواهب ، تسقط دائما في وهـــاد المحليّة ، وفي تكرار التجارب الأخرى ، خذ أي مجموعة شعريّة تصادفك هنا وهناك ، وتأمل مفرداتها بعناية ، فلن تجد فيها قضيّة مركزيّة من هذه القضايا الفكريّة والإنسانيّة ، التي يضجّ بها عالمنا ، يدير عليها شاعرنا شعره ، ومع ذلك فان شعراءنا يتعصبّون لأشعارهم ، ويحدثون حولهم طقوسا من الحركات الغامضة ، ومن ألوان التجمع والإندساس ، ومن أحاديث هيّنة يكتبها هذا أو ذاك من الأغرار ، مما يزيد القضيّة تعقيدا ويعمّق هوّة الجفوة بينهم

وبين قراء ، أصبحوا يميزون بين الجيّد والرديء ، بين الأصيل الرائع القوي ، وبين التقليد الغامض الهامشي الذي يتبخّر أثره فورا .

والذي أعتقده بجدّ أنه آن الأوان ، لكي نراجع كثيرا من الأشياء ، وفي مقدمتها هوية أدبنا التونسي ، وأنا مدرك في الوقت نفسه ، أن أدباء كثيرين ، كتّابا وشعراء ، قد حسموا هذا الأمر منذ زمان وأنهم يمضون في أعمالهم غير مكترثين قليلا أو قليلا ، بما يثار من حديث حول هذا الموضوع ، ولكنّي مع ذلك ، أرى أن هناك لبسا يجب أن يزول ، وغموضا ينبغي أن يتوضّح ، حتّى تستقيم أمام أجيالنا الأدبيّة الشابة سبل التجديد الحق ، وأن تصل أصوات كتّابنا وشعرائنا إلى مجالها العربي الحيويّ ، واضحة قويّة صافية .

المسرح التونسي قضاياه ومشاكله

سبق لي أن كتبت أكثر من مرة ، عن فوضى العمل الأدبي في بلادنا ، وافتقاره جزئيا أو كليًا ، إلى سلطة نقدية وثقافيّة تقوّمه فتصحّح مساره ، وتوجّهه الى الغاية التي ينبغي أن يصير إليها ، وتوقفت عند شواهد معيّنة ، أسماء وأنواعا وحركات ، بدا لى أنها افتقدت مرتكزها الفكري والفنّي ، وانحرفت إلى عمل ضبابي غريب ، لا نفع فيه ولا رجاء ، لم أكن قاسيا حين كتبت ، ولا أريد أن أكون كذلك ، وإنما كنت أريد أن يعي الذين يتصدّرون للابداع الثقافي والأدبي ، أن العمل الذي يباشرونه ليس هيّنا بأي حال ، ولا سهلا كما يبدو ذلك لأول وهلة ، وإنما هو ذو طبيعة خاصّة.، كلها تضاريس وأودية وشعاب ، النفاذ إليها يحتاج احتياجا أكيدا إلى جلد من نوع خاص ، وإلى مران ودربة واختيار وإلى وعي حاد بمسوولية الفن ، والإضافة الإيجابيّة التي يثرى بها العقل والنفس والذوق ، غير أن الذي نريده ونسعى اليه شيء ، وما يتحقق في ساحتنا الثقافيّة والأدبيّة شيء آخر .

وإني أحب في حديثي هذا ، أن تقف معي لنفكر معا في

قضيّة المسرح التونسي ، والمآل البائس الذي انتهى إليه ، وأنت تعلم بالتأكيد الأحاديث والمقالات الطوال والقصار ، التي كتبت وأذيعت وصوّرت ، واهتمّ جميعها أو أغلبها بتمجيد الفنّان التونسي ، مؤلفا ومخرجا وممثلا ، وما صار إليه من رفعة لا تدانى ، بالقياس إلى الفنّان العربي في الأقطار الأخرى ، وبالقياس إلى الفنان الإفريقي الناطق بالفرنسيّة والانقليزيّة أيضا ، إلا أن المتابعة المتأنية لما يعرض أمامك ، ولما يقدم إليك في هذا اللون أو ذاك ، لا تتطابق وما قرأت وسمعت وشاهدت ، فلا الموضوعات تستوقفك ولا اللغة تستهويك ولا الإخراج يثيرك ، إنما هي عروض تتشابه وتتناسخ ، يقفو بعضها بعضا ، لا همّ لها إلا أن تستأثر بالعواطف والأهواء ، وإلا أن تداعب الغريزة الهاجعة ، وإلا أن تثير السطحي من الأشياء اليوميّة ، التي سريعا ما تتبدّد وتذهب هباء ، أين ذلك المسرح الجاد الذي عرفناه في تونس في بعض الفترات على أيدي محمد عبد العزيز العقربي وحسن الزمرلي والبشير المتهنّي ، وغيرهم من الذين لا أذكر أسماءهم الآن ؟ لقد مضت فترة طويلة دون أن نشاهد مسرحيّة جديرة بهذا الإسم ، فقد اختفت أسماء الكبار من الغرب والشرق ، وبعد بالناس العهد بشيكسبير العظيم ، الذي تحرص كل الشعوب المتحضّرة على مشاهدته والنهل

من ينابيعه الفياضة ، وبقارسيا لوركا وكَامو وإبسن وتنيسي ويليامز وأرثرميلر وبيراند يللّو و آخرين لا يشملهم العدّ والإحصاء وضعفت ذاكرة الناس أن تستحضر مسرحيات عربيّة رائعة ، أبدعها توفيق الحكيم والفريد فرج وعلي سالم وميخائيل رومان وعبد الرحمان الشرقاوي وصلاح عبد الصبور ، وغير ذلك مما أبدعته قرائح عربيّة أخرى ، في العراق وسوريا والجزائر والمغرب وتونس أيضا .

ما الذي جرى ؟

الذي جرى أن رجال المسرح عندنا ، وأقصد مسؤولي الفرق والمؤسسات المسرحيّة ، قرّروا بوعي أو بغير وعي ، أن الرأي العام التونسي لا يهتمّ بالمسرح الجاد ، ولا يكترث بقضايا الفكر العميق ، الذي يخاطب جوهر الذات الفرديّة والمجتمعيّة ، ولا تشغله وقائع الصراع بين الإنسان ونفسه وواقعه ، وبين ما يحدث حوله بعيدا وقريباً من ألوان الصراع الإنساني ، فهي أشياء ترهقه وتستعصي عليه ، لأن الإستهلاك اليومي قد طغى عليه ، وسدّ أمامه منافذ الشوق إلى المعرفة الأصيلة ، لذلك فلا بدّ أن يخترعوا له نوعًا خاصًا من المسرح ، وفنًا مناسبا لأوضاعه التي يعيشها ويحياها ، ومن هنا جاءت هذه المسرحيات التي ألفت على

عجل ، وسؤيت من أحداث متفرّقة يعرفها الناس ويباشرونها صباح مساء ، أو من واقعة اجتماعيّة ضيّقة ، عرفتها هذه القرية أو تلك من قرى الجنوب والشمال ، وهذه المسرحيات لا تؤلف كما تؤلف المسرحيات عادة ، وإنما تدعو إلى تأليفها مناسبة أو رغبة ما ، ثمّ يلتفّ جماعة حولها ، ينسجون حوارها وأحداثها ، غير مكترثين قليلا أو كثيراً بما يسمّى في بدهيّات المسرح بوحدة الحدث ، الذي ينبغي أن تتّسق مفرداته الداخليّة حتى تحدث تأثيرها المطلوب في أنفس مشاهديها ، وغير مكترثين طبعاً بهذا الجمهور الواسع العريض ، الذي ألحّ عليه الإعلام السريع ، وحاصره الفراغ الاجتماعي ، وضللّه ما تعرف وما لا تعرف من الأخبار المتداولة في السرّ والعلن ، ولكنه مع ذلك حين يثوب إلى نفسه ويخلو الى اطمئنانه ، يدرك بحسّه السليم وسليقته التي لا تخونه دائما ، أنه قد نُصب له فخ ، في طريق سالكة ، وأنه قد أهدر وقتا ، كان قمينًا به أن يقضيه بين جدران بيته ، يطالع كتاباً أو يستمع إلى أغنية ، مما تعوّد أن يستمع في كل الأوقات ، ولعل الظاهرة الأخطر من كل ذلك في هذه المسرحيات ، أن لغتها عاميّة موغلة في عاميتها الى أبعد الحدود ، يستوردونها لك من الحوشي البدوي ،

ومن التقعّر المدني ، إلى مزيج سمج منهما ومن كلمات أجنبيّة ، دون أن يدركوا أن هذه العاميّة قاصرة بطبعها عن التعبير عن شخصيّة مسرحيّة ، ينبغي لها أن تتنامى إحساسا وفكراً ، ودون أن يدركوا أن الإبداع المسرحي العظيم بحق ، هو الذي ينبغي أن يصدر عن لغة لها حضارة وتراث ، وأن العربيّة الفصحى كانت دائما وفيّة لتجارب العصر ، وكلّ العصور ، وأنها كانت السبب دائما في هذا النجاح الذي عرفناه لمسرحيات عديدة ، وكانت مرجعا أساسيّا في أدبيات مسرحنا العربي الحديث .

ومع ذلك فان العديد من رجال المسرح عندنا ، يحرصون الحرص كله على أن يعيدوا القول ، بمناسبة وغير مناسبة ، بان المسرح التونسي يتقدم ويزدهر باستمرار ، واضعين بين يديك اعترافات من هنا وهناك ، نشرتها صحفنا التونسيّة أو صحف أخرى ، تشهد كلها بحداثة مسرحنا وتطوره ، وأنه حقق قفزة نوعية لم تعهد في أي مسرح عربي آخر ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلى غرس الاطمئنان في أنفسهم ، وفي أنفس غيرهم من الجماهير العريضة ، وبالتّالي فلا مجال لأي محاسبة أو اتهام بالتقصير ، لأن مسرحهم قد اشتدّ عوده ، واتخذ مساره الطبيعي والواضح في آن .

ولكن إرسال القول كيفما اتفق ، والاستناد إلى ما تسخو به علاقات المجاملة والصّفو الودود ، لا يغيّر من الحقائق الواقعة شيئا كبيرا أو صغيراً ، ذلك لأن المتتبّع لحركة العمل المسرحي ببلادنا ، لا يكاد يجد بين يديه من النصوص المسرحيّة ما يصلح مثالا عن ذلك السبق والتقدم والازدهار ، بل العكس هو الصحيح ، فأين هي النصوص المسرحيّـة بحقّ ، أي تلك التي توفّرت على قيم الفن الصحيح ، مضمونا وشكلا ، وتوازن بناؤها الداخلي ، بحيث تؤدي عناصرها ما هي قمينة بأدائه ، بعيدا عن أي لغو زائد ، وتملق زائف ، وتحريض أجوف ، إنك ستذكر لي هذا العنوان أو ذاك ، لمسرحيات شاهدتها وقرأتها وربما أعجبت بها ، ولكنّي أؤكّد لك أن بروز تلك المسرحيات وانتشارها ذلك الانتشار الذي تعرف ، إنما كان بسبب من مجاراتها للفكر السياسي السلطوي ، والدفاع الحار عن أطروحاته ، وما كان يهدف إليه من تجذير للقيم الانعزالية ، وتفريغ الشخصيّة التونسيّة من هويتها العربيّة الإسلاميّة ، وما يعنيه كل ذلك من قطيعة وعداء للأرض التي من حولنا ، وللإخوة الاشقّاء الذين ارتبطنابهم طيلة القرون ، وكنّا وإياهم عبر الزمن المديد كلّا واحداً في السرّاء والضرّاء ، وفي مواجهة الخطوب والكوارث والمصائب ، بل ولما تقدمه تلك المسرحيات من

تفسير غريب للتاريخ العربي والإسلامي ، وادّعائها أن الإسلام والعروبة في الشمال الأفريقي لم يتغلغلا في النفوس والعقول ، وأنهما ظلاّ بعيدين عن حركة الشعوب اليوميّة ، وعن كل ما تنجزه من عمل هام وغيرها ، ولقد حضرت عرضا مسرحيا بمسرح قرطاج الأثري ، لإحدى هذه المسرحيات التي إليها أشير ، وكان ذلك في أوائل السبيعنات ، فكان الممثلون يتعمّدون المزج بين الأمس واليوم ، بين التاريخ المكتوب أيام العباسيين ، وبين التاريخ العربي الراهن الذي لم يكتب بعد ، فيعلنون بيانات الخليفة العباسي من إذاعات القاهرة ودمشق وبغداد ، وكانت تهاجم « الزنج » المتمردين على الخلافة بقيادة علي بن محمد ،. فيتهيّأ للسامع المشاهد أن التونسيين في مواقفهم من القضايا العربيّة والإسلاميّة ، كمواقف صاحب الزنج وتابعيه من الخلافة العباسيّة ، وقد فهم هذا بعض من حضر ، متجاوبا مرة ومستنكراً مرة أخرى ، ومسرحيات أخرى من هذا القبيل ، كانت كلها في نفس الاتجاه والنسق ، ومن هنا جاء الحديث عنها بأنها مسرحيات لها شأن ، ومن هنا اتسع لها صدر الجهاز الإعلامي بالتقدير والتبجيل ، وبالسخاء الذي أجزل لعروضها في القرية والمدينة وفي الخارج أيضا ، فاذا عرفت أنها كانت تهاجم العادة والعقيدة ، وقيم التاريخ والحضارة ،

وتسخر السخريّة المرّة من ثوابتنا والرّموز ، أدركت معي لماذا صارت اليه من حظ ، ومن صوت يعلو هنا وهناك ، بأنّ هذا هو الجديد المسرحي الذي لم يتوفّق اليه أحد ، وأنه الفتح السحري الذي لم يهتد اليه آخر ، في مشرق الأرض ومغربها كذلك .

إن المسرحيات التي بين أيدينا ، والتي كان لها شيء من النجاح فيما قبل السابع من نوفمبر قليلة جداً ، ولا يمكن بحال أن تجد الصدى الذي كان لها بالأمس ، لأنها كتبت من وحي أحداث سياسيّة واجتماعيّة ، ذهبت وانطوت ولم يعد الواقع الاجتماعي والسياسي اليوم يستجيب لها ، أو يجد فيها ما يدعو إلى التعاطف أو يدعو إلى الوقوف ممّا جاء فيها ، من قول ورأي ومن اتّجاه عام لا وَجْه له بعد الآن ، وعلى ذلك فان مسرحنا التونسي يعيش أزمة نص ، وهي أزمة ليست جديدة ، بل قديمة لم تجد المعالجة المناسبة ، الكفيلة وحدها بالخروج من هذه الضحالة التي تستشري الآن في كلّ ما يعرض أمامنا من مسرحيّات ، وفي رأيي أن الخروج من إسار هذه الأزمة ممكن ومتاح أيضا ، ولكن بشرط أن تبدأ البداية الطبيعيّة ، التي انطلقت منها كل المجتمعات الراقية ، وهذه البداية تقتضي العناية الخاصة

بالنصّ وصاحبه ، فنعلن المسابقات السنوية والموسميّة ونحسن الموازنة بين النصوص ، فلا مقياس آخر إلا الجودة والجودة وحدها ، وإلا ما تتوفّر عليه من كمال الفن ، وسموّ الابداع ، وجدارة الموهبة ، ولنجعل ذلك مناسبة لتكريم المبدعين في هذا المجال ، وإتاحة الفرصة أمامهم لكي يواصلوا عملهم الإيجابي ، الذي يتجاوز المناسبة العابرة ، والفرصة الضيقة التي يتحكم فيها الهوى العارض ، سياسيًا كان أو اجتماعيا ، وهي مسؤولية تتحمّلها بالأساس وزارة الثقافة ، التي تهمها عروض المسرح في هذا الدورة الموسميّة ، أو تلك التي تضطر اليها في زيارات التبادل الثقافي بين الأقطار الشقيقة والصديقة وهي مسؤولية الفرق المسرحيّة أيضا ، إذ ليس من طبائع الأمور ـ فيما نعلم ـ أن يتواطأ مخرج مع هذا أو ذلك سراً ، لإنجاز نصّ بمواصفات معينة ، لأن النص المسرحي لا يكتب بهذا الشكل أو تحت ظرف خاص ، وإنما يكتب باختيار من صاحبه ، وبوعي تامّ بحدود مسؤوليته الفكريّة والفنيّة لا ينبغي لأي كان أن يفرض شروطه على المؤلف قبل الكتابة أو أثناءها ، مثلما يحدث الآن ، وعلى نطاق واسع أيضا ، فلا يحق ان يطلب إليه الاقتصاد في عدد الشخصيات ، واحداً أو إثنين أو ثلاثة ، أو أن يدير الأحداث في فضاء محدّد ، لا يتغيّر ولا

يتبدّل إلا في حالة قصوى ، بدعوى التمويل الذي لا قبل باحتماله .

لقد أثرت هذه الطريقة تأثيرها السيء ، فيما ترى من نصوص وفي هيكل العرض المسرحي جملة ، حتّى صار من العادي جداً للمشاهدين ، أن يتنبّأوا بتقنيّات المسرحيّة منذ البداية ، وبالطبع فان الحديث يتسع في هذا المجال ، ويمكن أن تقدم اليك الشروح والتعلاّت ، والحالات الحرجة التي تمرّ بها فرق المسرح ببلادنا ، ولكن هذه قضيّة أخرى لا ينبغي لها أن تتسلّط على النص المسرحي ، الذي نريده نصّاً مسرحيًا جديرا بالاسم الذي يحمله ، وجديرا بنهضة مسرحيّة ، نريدها أن تتحقّق في هذه البلاد .

إن الحديث عن المسرح ، مشاكله وقضاياه ، ينبغي أن يتعدد ويتجدّد ، وأن يطيل الوقوف والتأمل ، لفحص هذا العجز الذي شلّ منه الحركة ، وجعله عنصرا غير مؤثر في الواقع والناس والحياة ، ومصدر ذلك بالتأكيد ، يرجع إلى عوامل ومؤثّرات ليست ثقافيّة خالصة ، أو فلنقل إنها تلك التوجيهات العشوائيّة والتوصيات المرتجلة ، التي كان يحلو لأصحابها وبالذات صاحبها الأوحد ، أن يباشروا بها المثقفين وأهل المسرح بخاصة ، للحيلولة بينهم وبين ما يقتضيه الفن

المسرحي من جدّ ، ومن سؤال وبحث ، تتطلبه الحركة الإجتماعيّة المتطورة أبداً ، ويتطلبه التجديد المسرحي كما يتحقق هنا وهناك في الشرق والغرب ، والدفع بهم دفعا إلى مسارب ضيّقة ، وإلى دروب مسدودة ، تنتصب فيهَا الأوثان و تلقى أمامها ابتهالات التعظيم والتمجيد ، ولذلك فلا بدّ أن تمضي فترة طويلة ، قبل أن يعي المسرح هويتــه الحقيقّة ، كفنّ له مقوّمات فنية صحيحة ، خالية من أي ارتجال وفوضى ، وكاتّجاه قويم ، همّه بالأساس خدمة المجتمع ، وتجذير القيم العادلة فيه ، بعيدا عن أي مغالطة وتمويه .

ولعل الوقوف عند أمر الجمهور المسرحي ، واتساع رقعته مرّة ، وضيقها وتقلصها مرّة آخرى والشكوى العالية من عبثه الساخر ، وتجاوزه في كثير من الأحيان لآداب الصّمت والإصغاء يسهم - كثيراً أو قليلاً - في علاج قضيّة المسرح ببلادنا ، وما نشاهده فيها من ارتباك وضعف ، في فهم طبيعة الدراما المسرحيّة ، قديمة كانت أو حديثة ، وفي المعرفة الكافيّة بحدود الرسالة المسرحيّة كما ينبغي أن تكون ، وكما هو واضح ، فان الجمهور المسرحي التونسي ، افتقد خاصياته التي عرف بها سابقا ، حين كان يقبل بكثافة

طيلة الخمسينات والستينات ـ على المسرحيات الجادة ، أو القريبة من أن تكون جادة وحين كان يتهيأ لحضورها كأحسن ما يكون الحضور ، فيتابعها يقظا جاداً ، تستغرقه الفصول والمشاهد ، وتأخذه الحركات الموزونة ، التي كان يأتيها هذا الممثل أو ذاك ، ممن تعوّد أن يلتقي بهم في أعمال أخرى ، وكانوا له في أوقات كثيرة مصدر إمتاع وفائدة ، ولكنه اليوم غير ذاك بالأمس ، إذ هو غائب أو شبه غائب عن أعمال مسرحية ، لها صيت وأي صيت ، كشيكسبير الذي قدم في السنة الماضية (1987) فلم يحتفل به أحد ، ولم يسرع اليه من كان يدرك سرّ خلوده وعظمته ، وهو حاضر شديد الحضور في أعمال قيل إنهامسرحيّة ، وما هي بذلك ، فهي التهريج والبهرج ، وهي العمل غير الموزون ، يتحرك في كل اتّجاه ، وهي المداعبة الغريزيّة وغير الغريزيّة ، التي تثير وتحرّض ، وتتسقّط العيب والنميمة وتدفع بالنفس والعقل إلى متاهات لا ضابط لها ولا إيقاع ، ومن عجب أن جمهورنا هذا ، اعتاد ذلك وتعوّده أيضا ، فها هو أحدهم يرفع صوته بالحديث والجلبة ، وها هو يقاطع الممثل بالكلمة النّابية ، وبالتعليق الساخر الفجّ ، فلا يجد من يلزمه حدّه ، وإنما يجد وقعا حسنا في النفوس التي من حوله ، فيزداد بذلك همزه ولَمْزُه

ويزداد الموقف هكذا اشتعالا ، إلى أن ينزل الستار ـ أو لا ينزل ـ ويتفرق الناس بسلام .

هنا قد يطرح هذا السؤال : إن هذا الواقع نعرفه ونعيشه ، ونمارسه موسما إثر موسم ، ولكن الذي يحتاج إلى تفسير ، هو التبعة والمسؤوليّة ومن يتحملها ؟ وهو سؤال صحيح ، ودقيق كما تري لأن من طبائع الأمور أن لا تصل بنا الأمور إلى هذا الحدّ ، قياسًا على عمل الشعوب من حولنا ، في أوروبا وغير أوروبا ، واعتمادا على الفهم العلمي لفنّ المسرح ، وعلاقته الإيجابيّة بمشاهديه ، والذي اعتقده أن الجمهور التونسي ، تحوّل هذا التحوّل الذي نشاهده اليوم ، كان نتيجة عوامل عديدة ، في مقدمتها بلا شك ، الفهم الخاطئ لفن المسرح ، ولمعنى الحداثة بالتحديد ، والإصرار العجيب الذي كان يمارسه القوّامون على المسرح ، ليمضي في هذا الاتجاه ، إلى درجة أن المسرح المدرسي الذي قيل عنه الكثير ، وخصصت له وزارة الثقافة مرشدين بكل معهد ثانوي ، لم يتمخّض عن شيء له أهميّة ، يخدم حتّى المشاهدة الإيجابيّة لعرض مسرحي ، ومن المؤكد أن العديد من قرائنا قد شاهدوا شيئا من عروض هذا المسرح بمناسبة من مناسباته المعروفة ، وأنهم خرجوا يائسين أو كاليائسين ،

فالنصوص التي أمامهم ليست نصوصا مسرحيّة ، كما يجب أن يُقدّم تلاميذ المعاهد ، وإنما هي نصوص ملفّقة ، طابعها الارتجال والسطحيّة ، وهي لا تخدم بحال ملكات التلاميذ وما تحتاج إليه من شحذ فكري وأدبي وفني ، هي شبيهة بتلك العروض التي تقدم للجمهور العريض ، الذي قلنا إنه انزلق إلى التسلية والترفيه ، وإلى القول المجاني الذي لايغني في قليل أو كثير ، وبالطبع فهناك عوامل أخرى ، لها صلة بالاضطراب الاجتماعي والسياسي والثقافي ، الذي عرفته بلادنا طيلة العهد السابق ، أثّرت هي بدورها سلبا ، في قضيّة المسرح بعامة .

ولكنّي موقن من وجه آخر ، أن الجمهور المسرحيّ في الصّورة التي نريد ، يمكن أن يستقطب من جديد ، وأن يعرف مرة أخرى طريقه إلى القاعات المغلقة وغير المغلقة ، حين نعيد ترتيب بيتنا المسرحي على أسس علميّة وفنيّة ، حقيقة لا مجازا ، وحين نقدم له أعمالاً جادة ، تخاطب العقل والنفس ، وتفتح له آفاقا رحبة ، يرتاد بها عصره الجديد وحضارتـه الباقية ، بذلك نكسب له المزيد من المشاهدين ، ونكسب فنا مسرحيًا لا زيف فيه ولا ابتذال .

الثقافة بين الانطلاق والتهميش

ستمضي مدة ـ تطول أو تقصر ـ قبل أن تأخذ الثقافة بمعناها الحقيقي والجادّ ، منزلتها الإيجابيّة المحترمة ، كقوّة فعّالة في تغيير النفس والمجتمع والحياة ، ذلك لأن هذه الثقافة تعرضت طيلة أكثر من ثلاثة عقود ، سابقة نعرفها جميعا ، إلى هجمات شرسة ، نظمت بإحكام وخطط لها بدقة ، لكي تظل عنصرا هامشيا ، لا تأثير له في الواقع الاجتماعي والسياسي والحضاري للبلاد ، بل هي أدعى إلى أن تكون مصدر سخريّة ورثاء منها إلى أي شيء آخر ، ألا تذكر الخطاب الرسمي الذي يتكرر في الصبح والمساء بأن الكلمة المكتوبة ، مقالة أو غير مقالة ، لم يكن لها أي دور في الحياة السياسيّة وفي تحرير الوطن ، وبذلك شجبت أعمال الإصلاحيين والمفكرين والكتّاب ، الذين نهضوا بأعباء الدفاع عن الكيان المهدّد وتصدّوا بثبات لصنوف التشكيك والإحباط ، وكل أنواع الغزو الفكري الاستعماري ، التي حاولت ضرب شعبنا في أعزّ مقوماته الفكرية والحضاريّة ، وإنك لتذكر أيضا ، أن الخطاب الرسمي ، كان يلذّ له دائما أن يسخر سخريته السوداء ، بالقصة والأقصوصة

والشعر الحرّ وغيره أيضا ، فغدا الكاتبون بذلك ، أناساً متعطّلين يرهقون أنفسهم والمجتمع بما لا يعود بخير قليل أو كثير ، وبما لا يكاد ينفع الناس في ضروري أو غير ضروري !!

ونتيجة لذلك ، ظهرت دعوات جديدة ، وبرزت أقلام من حيث لا يعلم أحد ، تنظر للمقولة الرسميّة وتحلل المعاني البعيدة التي تشير إليها ، فكانت الدعوة إلى ما يسمّي بالشخصيّة التونسيّة ، وما ينبغي أن يكون لها من أدب خاص بها ، ومن لغة يجب أن تتميّز عن العربية السائرة في كل أرجاء الوطن العربي ، وكان الشعر الذي يكسّر الوزن ويتجاوز القاعدة المقنّنة ، وكان الكلام النثري الذي يتحدّى التراث والأصل ، ويعلن أننا أمة بغير فكر ، وأن كل ما تعارف عليه الناس من فكر وأدب وحضارة وتاريخ ، طيلة القرون ، ما هو إلا تخلف ورجعيّة ، وما هو إلاّ جهالة ينبغي أن نتخلّى عنها ، وإنك لتذكر معي أيضا ، أن المنابر الثقافيّة والإعلاميّة تجنّدت في طول البلاد وعرضها ، لإشاعة هذا الأدب الجديد ، وهذه الثقافة الجديدة ، وأن مؤسساتنا التعليميّة ، أعادت النظر في مناهجها الرسميّة لتكون في مستوى الخطاب السائد ، هي مغالطة ولا شك ، لأن القضيّة

ليست أن نجدّد أو نكتب الأدب الجادّ الذي يبقى ويستمر ويكون عنواناً على التحضّر والتمدّن ، كما توهم العديد من شبابنا ، حين اندفعوا يكتبون ما يكتبون ويعلنون ما يعلنـــون ، وإنما هي مشروع محدّد ، لضرب الثقافة الحقيقيّة وتهميش المثقفين الحقيقيين ، والدليل علـــى ذلك ، أن بلادنا عرفت في أواخر الخمسينات ، حصاراً ثقافيًا رسميًا ـ استمرّ أكثر من عشر سنوات ـ عزل تونس عن كل أجزاء وطنها العربي ، عزلا حقيقيا ، شمل الصحيفة والمجلة والكتاب ، وأبين من ذلك ، أن كثيرا من كتّابنا وشعرائنا ، من أولئك الذين اندفعوا في الاتّجاه الذي أشرت إليه منذ قليل ، ببراءة أو غير براءة ـ قد تعرّضوا في بعض أوقاتهم لإرهاق شديد ، وأن يداً طويلة قد امتدّت إليهم لترهب وتزجر لا لشيء إلاّ لأنهم غيّروا مواقفهم الفكريّة ، وانطلقوا يكتبون أدبهم الخاص ، وقيمهم التي بها يؤمنون .

فأنت ترى أن المثقف التّونسي و الكاتب بخاصة ، مهما كان لونه الفكري ومهما كان اتجاهه الفنّي ، تعرّض في العهد السابق إلى ألوان من التهميش المقصود ، وإلى فنون من الإقصاء المتعمّد عن كل مسؤولية حيويّة ، بلغت في كثير من الأحيان ، حدّ المقاطعة والعزل ، فظلّ صوته حبيسا بين

الجدران ، تتأكله الحسرة ويتناوشه الألم ، لذلك فان مسؤولية العهد الجديد ، أمام المثقف والكاتب التونسي ، ثقيلة أي ثقل ، لأن هذا العهد مطالب بأن يرفع الغبن عن الثقافة الجادّة ، وأن يردّ الاعتبار للكتّاب والفنّانين وسائر المثقفين ، من خلال الاستجابة لمطالبهم الملحّة ، الأدبيّة والماديّة ، وهي معروفة ولها ملفّات سميكة في أروقة وزارة الثقافة ، حتّى يساهموا في هذه النهضة الجديدة ، التي يحاول شعبنا إرساءها .

لقد مضت فترة طويلة إذن ، والكلام لا ينى يتواصل ويتجدد ، حول المعنى الحق للثقافة ، وأهميتها في البناء والنهضة ؛ وحول مسؤولية المثقف التاريخيّة في التغيير والتحديث ، وحول المنزلة الواجبة التي ينبغي أن تتاح له ، لكي يبدع وينتج الأثر الراقي ، الذي يهذّب النفس والعقل ، ويدفع الناس إلى التأمل في الواقع الذي من حولهم ، فيعدّلون ما به من انحراف وفوضى ، ثمّ يضيفون إليه ما تقتضيه الحياة الجديدة ، حتى تستقيم أمورهم ، وحتى يبلغوا الهدف الذي يؤمّلون ، ولكن شيئا هامّا لا يكاد يتحقق ، كأن كلّ الذي قيل ليس له مدًى يصل اليه ، فكأنّه الصوت الذي لا يرى صاحبه ، فهو يتردّد صدى بعد صدى ،

ثم ما يلبث أن يتبدّد في فضاء بلا نهاية ، وهل يملك صوت المثقف غير أن يتبدد ويضيع ، وغير أن يرتدّ إلى نفس صاحبه ، فيشكو الغبن والعزلة ، ويشكو هذا الإهمال الطويل ، الذي لا يدري كيف يتجاوزه ، ولا كيف ينطلق من إساره ، كما انطلق غيره في الأرض القريبة والبعيدة .

إن الوقت قد حان ، أكثر من أي وقت مضى ، للنظر بجد في قضيّة الثقافة ببلادنا ، وطرح مضامينها طرحًا جديداً ، يتلاءم وهذه الحركة الجديدة التي بدأنا نأخذ بها في ميادين عديدة وكثيرة أيضا ، ولكي أكون إيجابيا ، فاني أشير إلى هذا الخلط العجيب ، في الساحة الثقافيّة والأدبيّة ، بين الكاتب الأديب من جهة ، وبين المدرّس الجامعي من جهة أخرى ، فان مؤسسات ثقافيّة عديدة ، دور نشر ، وإدارات ثقافيّة رسميّة ، وأجهزة أخرى أيضا ، تجعل من مدرّس الأدب وغير الأدب في الجامعة ، وصيّاً ورقيبا على الكاتب الأديب ، الذي يبدع هذا الفن أو ذاك من فنون الأدب المعروفة ، كالقصّة والرواية والمسرحيّة والشعر ، والنقد والمقال ، وتطمئن اطمئنانا تامًا إلى أحكامه ، وما يصدره من قرار باتّ ، بمصير هذا الأثر أو ذاك ، وما يعنيه ذلك من تصنيف وتبويب لمنازل الكاتبين والشاعرين ، وهكذا فانّك

تجد الكثيرين من أدبائنا ، من الذين عرفوا طويلا بالاقتدار والجودة، يتأخّرون سنة بعد أخرى في مسابقات الجوائز الأدبيّة التي تنظمها وزارة الثقافة ، بينما آخرون تدقّ لهم الطبول ، وترفع لهم أعلام النصر ، كأنهم من الرجال الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب ، لا لشيء إلاّ لأنهم ينتسبون إلى هيئة تدريس الجامعة ، وإذ تتفحّص الأمر فانك تجد آثاراً عادية ، يعرفها الطلاب وغير الطلاب ، هي خلاصة دروس تلقى كل سنة ، حول مسألة ما ، أو محور من محاور التاريخ ، واللغة والأدب والحضارة ، أنا لست ضدّ تكريم المدرّس الجامعي وتقديره ، ولكنّي أعتقد أن مجاله الأول والأخير هو بين جدران المؤسسة الجامعيّة ، لأن عمله نابع منها وإليها يعود ، وبالتالي فهي الأجدر بتكريم العاملين فيها ، خاصة حين يكون الأمر متعلقا بأعمال غير أدبيّة ، مثل البحث وتلخيص هذا العلم أو ذاك ، وما شابهه من تحقيق وشرح وتحليل ، ثمّ وبأيّ حق يفرض المدرّس الجامعي ، الذي نجده حاضرا في كل اللجان ، منهجه الخاص في تقييم آثار المبدعين والكتّاب والفنّانين ، فان المناهج لمتعدّدة ، وقد تكون متناقضة أحياناً ، ومتغايرة بالكامل أحياناً اخرى ، وما يدريه أن الأثر الذي بين يديه ،

قد وضعه صاحبه قصداً ، ليسخر من تلك المناهج التي جعلت لتتعلّب بها االآراء ، وتتّجه لها وجهة مرسومة لا تتعداها أبداً .

ليكن ثمّة إنصاف ، ولترفع الوصاية عن المثقف المبدع ، هذا الذي أدمن عشرة قرائه ، وصحبهم في سرائهم وضرائهم ، وكانوا له دومًا مصدر غبطة وسرور .

التغيير الصّعب

في أواخر الخمسينات ، التأم باحدى العواصم العربيّة ، ملتقي للأدباء العرب كبير ، فكان تظاهرة أدبيّة هامة ، شارك فيها أعلام الأدب العربي ، كطه حسين وعمر أبو ريشة ومهدي الجواهري ، وسواهم ممن تحتشد الساحة الأدبيّة والثقافيّة ، بمؤلفاتهم وأطروحاتهم الفكريّة والفنيّة ، تونس كانت بالطبع في هذا الملتقي ، عبر وفد لا يقل أهميّة عن غيره من الوفود العربيّة ، فبعض أعضائه ، كالفاضل ابن عاشور وعثمان الكعّاك ومحمد الحليوي ومحمود الباجي ، معروفون مشهورون ومنزلتهم في الحركة الأدبيّة العربيّة لا يتطرق إليها الشكّ ، بيد أن الذي أثار الاستغراب والتعجب ، وجعل الوفود تتساءل في امتعاض ، هو شخص رئيس الوفد التونسي ، إذ لم يعرف بكتاب أدبي ، كبير أو صغير ، ولم تعرفه مجلّة عربيّة واحدة ، بأيّ لون من ألوان الكلام الأدبي ، ومع ذلك فهو حديث السنّ بالقياس إلى الشيوخ أعضاء الوفد ، ومن الهيّن أن تتصوّر الذي حدث بعد ذلك ، فقد أخذ الرجل يدلّي بتصريحات يمينا وشمالا ، يحلل فيها واقع الحركة الأدبيّة في تونس ، شارحا ومفسرا وناقدا

أيضا ، بينما لاذ زملاؤه بصمت كريم ، أبلغ من كل كلام .

تذكّرت هذه الواقعة البعيدة ، وأنا استعرض واقعنا الراهن ، في الثقافة والإدارة والاجتماع ، مبتعدا عن السياسة ، لأني لا أحب مزالقها ، ومن غير تردّد أعلن إليك ، أن هذا الواقع الذي أشرت اليه ، قد انغلق انغلاقا ، وتكلس تكلّسا ، لا تملك معه أي أداة إصلاحيّة أن تغير من هندسته ، التي أرسيت على تقاليد وأعراف ، دونها الصخر جموداً ، ودونها الفولاذ صلابة ، فاذا كان الأمر في بعض الفترات ، يتّجه إلى وضع مسؤول معين ، على رأس هذه المؤسسة الثقافيّة أو الإداريّة أو الاجتماعيّة ، فقط لا غير ، دون التدخّل المباشر في نوعية الأعضاء الذين قد يستحبّ أن يكونوا على مستوى جيّد أو قريب منه ، فان الذي يمارس الآن ، قد تجاوز كل حدّ معقول، إذ أصبح من حق المسؤول المعيّن ، أن يختار من يريد من الأشخاص ، وهم الذين ارتبط بهم ارتباطا لا يملكون معه أن يراجعوه في شأن لا يراعي في ذلك ميزانا توزن به الأقدار ، أو غاية تنفع في غد أو بعد غد ، وبذلك يتعطل الكثير من الطاقات المبدعة ، وتهمل جهود لو استثمرت في وجوهها الإيجابيّة ، لحدث ما هو مؤمل ومنشود ، ولكانت الخطى أبعد والنتائج دائما

أحسن ، وإنه لمؤسف أن تجد هذه الممارسة قد انتشرت في كثير من أوساطنا ، ولجأ اليها من يظنّ أن الطموح هـــو القفز ، وهو الدّوس على القيم والمبادئ ، وهو ما شئت إلا الصدق والنزاهة والإخلاص .

انظر حولك إلى جمعياتك الثقافيّة ، وتفحّص انعقادها وانفراطها ، وما جرى أثناءها وقبلها وبعدها ، فلا تملك إلا أن تبتئس ، وإلا أن تزداد يأسا من كل إصلاح ، وإني لا أشك في أنك شاهدت مراراً ، تلك الأساليب الغريبة التي يباشرها من أنت بهم عليم ، حين يتصدّرون لمسؤوليّة لا قدرة لهم على تحمّلها ، أو حين يتعصبون لمن خلا من كل قدرة واقتدار ، وعلى صعيد آخر فاني عشت ظرفا إداريا معينا ، يؤكد هذا الذي أقول ، فقد أعلنت الإدارة عن شغور مسؤولية ما ، فترشّح العديدون ، مؤهلين بالخبرة والشهادة ولكن الإعلان عن النتائج تأخر ، حتى شمل القضيّة النسيان ، وفجأة عرف الجميع أن المسوولية أسندت لشخص غريب عن الإدارة ، وأن التأخير كان مصدره انتظار أن يبلغ السنّ القانونيّة ، سمّ هذا ما شئت ، ولكنه الواقع الذي تعيشه إدارتنا ، وكثير من مؤسساتنا الأخرى ، وإني لا أعدّ هذا تصرّفا شخصيا أو حالة محدودة بزمن معين ، لأن المشرفين

الإداريين يعون جيدا حقيقة كل مترشح ، وما توفّر عليه من شروط .

إن الإصلاح صعب كما ترى ، وكلّ تغيير حقيقي لا ينهض له إلا من كان بالفعل قادرا على التغيير ، ودائما فانّ فاقد الشيء لا يعطيه كما يقول المناطقة ، وهكذا فلا مناص لنا ، من أن نرسم خطة واضحة ، يضعها المخلصون من رجالنا ـ وهم كثيرون ـ يحدّدون فيها مواصفات المسؤول ، الذي يحتاج إليه هذا الموقع أو ذاك ، وأن يتمّ كل ذلك بعيداً عن قوى التأثير ، المتوطّنة بادارتنا ، لأننا شئنا أم أبينا لا نملك رقابة فاعلة ، على مؤسساتنا ، لذا فاني أدعو إلى قيام مؤسسة حكوميّة خارج كل مؤسسة أخرى ، تتولّى وحدها النظر في انتداب المسؤولين ، حسب مقاييس محددة ، لا يستمع فيها لرأي المشرفين المحترفين ، هذه الفكرة معمول بها في عدد من الأقطار العربيّة ، وقد حقّقت نتائج طيبة وحسنة .

نعم ... هناك نقّاد

بعض الكتّاب ، الشباب منهم بخاصة ، لا يتمهّلون بما فيه الكفاية ، قبل أن يدفعوا بانتاجهم الأدبي إلى النشر ، ومع ذلك فهم يتبدّون مطمئنّين إلى الأحكام التي يصدرونها ، وجدّ واثقين بأساليب التحليل الفكري والمنهجي ، التي يقررون بها هذه القضيّة أو تلك ، من قضايا الأدب واللغة والحياة أيضا ، حتّى لتبلغ بهم الجرأة حدّ الإدّعاء ، بأنهم أصحاب أطروحات فكرية وأدبيّة جديدة ، وأنهم يتقدّمون إلى القراء من منطلق التأسيس ، غير عابئين قليـــلا أو كثيرا ، بما يعمر ساحتنا الأدبيّة والثقافيّة ، من ألوان الإبداع الفكري والأدبي ، عبر مسيرة طويلة حفلت بالروّاد الكبار ، وأصحاب الجهود الرائعة ، في القصة والرواية والنقد والدراسة والشعر والمقال ، وفنون الكتابة الصحفية أيضا .

فقد قرأت بجريدة « الصباح » وجرائد أخرى أيضا ، عديد المقالات التي تنفي قيام أي حركة نقديّة ببلادنا ، إلا استثناءات ضيّقة لا يعتدّ بها ، وهي تقرّر بكل وثوق ، أن

علة الركود الأدبي الذي يغشى الساحة الأدبيّة في تونس ، إنما مصدره غياب النقد ، وعدم ظهور الناقد المتخصّص ، الذي يدرس الآثار الأدبيّة ويصنّفها بمنهجيّة وإحكام ، فيكون بذلك المشرّع الفنّي والأدبي ، الذي يفتح طريق التجديد أمام الشعراء والكتّاب ، والحق أن هذا القول لا يستند إلى أي أساس ، من العلم بواقع الحركة الأدبيّة التونسيّة ، منذ بروزها في عصرها الجديد ، فقد واكبها النقد وتطوّر معها ، وخضعت في مدّها وجزرها ، لأساليبه المتجدّدة ، التي تكشّفت عنها مجالات المعرفة في كل العلوم الحديثة ، فقد عرفت مجلاّتنا وجرائدنا حركة نقديّة واسعة ، أثارها ظهور كتاب ، أو بروز رأي ، حول هذه القضيّة أو تلك من قضايا الأدب والفن ، فهذه مجلّة « العالم الأدبي » لصاحبها زين العابدين السنوسي ، تفتح صفحاتها لألوان من الحوار النقدي بمناسبة ظهور كتاب « الخيال الشعري عند العرب » لأبي القاسم الشابي ، فيكتب محيي الدين القليبي ومحمد الفاضل ابن عاشور ، عديد الفصول التي تحلّل الكتاب وتناقش صاحبه في كثير من آرائه حول الأدب العربي ، ثمّ تفتح صفحاتها ثانية لمناقشة دعوة محمد البشروش ، المسّماة « الأدب القومي التونسي » والتي نادي فيها بضرورة دراسة النصوص الرّومانيّة التي كتبت فـي أرض

تونس ، في فترة من فترات تاريخها القديم ، فيكتب عنها محمد الحليوي طويلا ، محللا جوانبها المختلفة ، ويتصدّى له آخرون مناقشين معترضين ، وقد أحسن الدكتور هشام بوقمرة ، حينما جمع هذه الفصول في كتابه الهام « القضيّة اللغويّة وتطورّها بتونس » مقدمًا بذلك خدمة جليلة لتطور الحركة النقديّة في تونس ، وغير مجلة العالم الأدبي ، كجريدتي الزهرة والنهضة ، اللتين اتسعتا لكثير من المعارك الأدبيّة والفكريّة ، أذكر منها واحدة شهيرة ، نشأت بين الأستاذين المرحوم محمد الصادق بسيّس ، والاستاذ محجوب بن ميلاد ، حول كتاب « من هنا نبدأ » لخالد محمد خالد، وغير هاتين الجريدتين ، فمجلّات الثريا والأسبوع والمباحث والندوة والفكر والتجديد وحوليات الجامعة ، زخرت في كل عدد من أعدادها بعرض الكتب وتقييمها ونقدها ، ومناقشة الأفكار الواردة فيها .

والواقع أن الإطّلاع على الدوريات والصحف التونسيّة ، يقدم فكرة مغايرة تماما ، لما يروّجه هذه الأيام بعض شباب الكتّاب ، حول النقد الأدبي في تونس ، فهناك القضايا العديدة التي نوقشت كالفصحى والعاميّة ، والإقليميّة الأدبيّة والتقليد والتجديد ، وغير ذلك من القضايا التي يطرحها

ثم ما يلبث أن يتبدّد في فضاء بلا نهاية ، وهل يملك صوت المثقف غير أن يتبدد ويضيع ، وغير أن يرتدّ إلى نفس صاحبه ، فيشكو الغبن والعزلة ، ويشكو هذا الإهمال الطويل ، الذي لا يدري كيف يتجاوزه ، ولا كيف ينطلق من إساره ، كما انطلق غيره في الأرض القريبة والبعيدة .

إن الوقت قد حان ، أكثر من أي وقت مضى ، للنظر بجد في قضيّة الثقافة ببلادنا ، وطرح مضامينها طرحًا جديداً ، يتلاءم وهذه الحركة الجديدة التي بدأنا نأخذ بها في ميادين عديدة وكثيرة أيضا ، ولكي أكون إيجابيا ، فاني أشير إلى هذا الخلط العجيب ، في الساحة الثقافيّة والأدبيّة ، بين الكاتب الأديب من جهة ، وبين المدرّس الجامعي من جهة أخرى ، فان مؤسسات ثقافيّة عديدة ، دور نشر ، وإدارات ثقافيّة رسميّة ، وأجهزة أخرى أيضا ، تجعل من مدرّس الأدب وغير الأدب في الجامعة ، وصياً ورقيبا على الكاتب الأديب ، الذي يبدع هذا الفن أو ذاك من فنون الأدب المعروفة ، القصّة والرواية والمسرحيّة والشعر ، والنقد والمقال ، وتطمئن اطمئنانا تامًا إلى أحكامه ، وما يصدره من قرار باتّ ، بمصير هذا الأثر أو ذاك ، وما يعنيه ذلك من تصنيف وتبويب لمنازل الكاتبين والشاعرين ، وهكذا فانك

تجد الكثيرين من أدبائنا ، من الذين عرفوا طويلا بالاقتدار والجودة، يتأخّرون سنة بعد أخرى في مسابقات الجوائز الأدبيّة التي تنظمها وزارة الثقافة ، بينما آخرون تدقّ لهم الطبول ، وترفع لهم أعلام النصر ، كأنهم من الرجال الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب ، لا لشيء إلاّ لأنهم ينتسبون إلى هيئة تدريس الجامعة ، وإذ تتفحّص الأمر فانك تجد آثاراً عادية ، يعرفها الطلاب وغير الطلاب ، هي خلاصة دروس تلقى كل سنة ، حول مسألة ما ، أو محور من محاور التاريخ ، واللغة والأدب والحضارة ، أنا لست ضدّ تكريم المدرّس الجامعي وتقديره ، ولكنّي أعتقد أن مجاله الأول والأخير هو بين جدران المؤسسة الجامعيّة ، لأن عمله نابع منها وإليها يعود ، وبالتالي فهي الأجدر بتكريم العاملين فيها ، خاصة حين يكون الأمر متعلقا بأعمال غير أدبيّة ، مثل البحث وتلخيص هذا العلم أو ذاك ، وما شابهه من تحقيق وشرح وتحليل ، ثمّ وبأيّ حق يفرض المدرّس الجامعي ، الذي نجده حاضرا في كل اللجان ، منهجه الخاص في تقييم آثار المبدعين والكتّاب والفنّانين ، فان المناهج لمتعدّدة ، وقد تكون متناقضة أحياناً ، ومتغايرة بالكامل أحياناً اخرى ، وما يدريه أن الأثر الذي بين يديه ،

نحو خطاب ثقافي جديد

هناك ما يشبه الإجماع ، بين أدبائنا ومثقفينا ورجال الفكر والسياسة ، على أن الوضع الثقافي ببلادنا ، يجتاز محنا خطيرة وأزمات قاسية ، تخضعه لسلبيّات وأنواع من التردّي والهبوط ، تزداد باطّراد منذ أن أصبحت الثقافة توجيها وتخطيطا ، وأسلوبا واحداً يتكرّر في اليوم والأسبوع والشهر ، فقد تسلّطت جماعات بحكم ذلك التخطيط والتوجيه ، محليًا وجهويًا ووطنيا ، تباشر أعمالها الثقافيّة بآلية ورتابة جمّدت قرائح المبدعين ، وهمّشت ما بالنّفوس من حيوية ونشاط ، إذ لا همّ لتلك الجماعات إلا التظاهرة يحكمون ترتيبها ، ويتفنّنون في إشاعة الأضواء من حولها ، يرسمون بدقّة كيف ينبغي للعدد الكثير أن يتحرك ، وكيف ينبغي له أن يحدث الدهشة في أنفس الجماهير ، التي تسعى بطبعها إلى الفائدة والجديد ، أمّا أن يكون وراء تلك التظاهرة ما ينفع ويبقى ، يخصب الذاكرة ويرقى بالأحاسيس والغرائز إلى مستوى التمدّن والتحضّر ، فتلك أمور لم تخطر على أحد ببال . أما أن يكون لتلك الجماعات ما يدفع المبدعين إلى الإبداع ، والجادين من المثقفين إلى المساهمة

في حركة النهضة العامة ، فهي أشياء لا يصحّ التفكير فيها ، ولا ينبغي أن تكون من مهمّات المسؤولية الثقافيّة .

آية ذلك - وما بالعهد من قدم - أن المثقفين كانوا يباشرون العمل الثقافي في كل جمعيّة وناد ، ويحرص المقتدرون منهم على الحضور الذي لا يعرف الغياب ، يرعون المسرحيّة والصحيفة والمجلّة والكتاب ، ويتقدمون سراعا خفافا إلى المناسبة الثقافيّة ، وطنيّة وقوميّة وإنسانيّة ، وكان لذلك الأثر الجميل في أنواع ثقافيّة عديدة ، خذ الأغنية مثلا ، هذه التي تعاني الآن من المشكلات ما تعرف وما لا تعرف ، فانها قد شهدت في بلادنا قبل هذه الفترة التي نتحدّث عنها الآن ، نجاحًا طيّبا ورقيًا لا سبيل إلى الشكّ فيه ، لسبب واضح وبسيط ، هو أن الملحنين والموسيقيين ، كانوا يحرصون الحرص الكبير على الاتصال بشعراء الموهبة والاقتدار ، وأن هؤلاء الشعراء بدورهم كان يلذّ لهم أن ترتقي الأغنيّة ، وأن تخرج عن سذاجتها المعهودة ، إلى مستوى التعبير الجيد عن العواطف والأحاسيس النبيلة ، لذلك تجد هؤلاء الشعراء ، أمثال شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي ، والطاهر القصار ومحمد المرزوقي ومحمود أبو رقيبة وجلال

الدين النقاش وعبد الرزاق كرباكة ومحمد العريبي والهادي العبيدي ، وغيرهم كثير ، يشرفون ـ مسيّرين ومؤلفين ـ على النادي الأدبي لجمعيّة المعهد الرشيدي ، وفي عهد هؤلاء تهذّبت الأغنية البدوية ، وحلت في الأسماع أغاني الريف والنجوع والحضر ، مما جعل للأغنية طعما خاصّا ونكهة متميّزة ، تعرفها بين ألف لون ولون ، وغير الأغنيّة أيضا ، فان المسرح اتّخذ نفس التقليد ، كل جمعيّة مسرحيّة ، كبيرة أو صغيرة ، كانت تخضع لإشراف الكاتب والأديب ، يختار لها النص ، ويشرح أبعاده ، ويقوّم ما في ألسنة الممثلين والممثلات من إعوجاج ، بل يتولى بنفسه أمر التلقين حين العرض والإنجاز ، وهكذا تجاوب الجمهور مع المسرح ، واتخذ له في أوساطنا الاجتماعيّة تقاليد ، لم يزل الكثيرون يحدثونك عنها باعجاب ، وهو نتيجة حتميّة لجهود من روّاد الأدب والمسرح ، كالهادي العبيدي ومصطفى آغة ومحمد الحبيب وخليفة اسطنبولي ، وسواهم ممن يتذكّر الناس ، أو لا يتذكّرون .

الآن اختلف الأمر ، وتغيرت صورة العمل الثقافي ، واختفى من الساحة الثقافيّة من كان ينبغي أن يكون حاضراً ، ذا تأثير فعّال في الاختيار والتسيير ، فليس من السهل

الهيّن البناء على الفراغ ، أو الاعتماد على جهود فرديّة ، ضيّقة ، خلت من كل تجربة ، لأن القضيّة ليست أن نملأ الفراغ اليومي والموسمي إنما هي مستوى هذا الذي يقدّم للناس ، والذي لا شكّ فيه ، أن الذي ملأ الاسماع والأبصار منذ سنوات ، وروّج له في الاجهزة العريضة وغير العريضة ، ليس من الثقافة إلاّ في أقل حدودها ، أو هو الشكل الظاهري البسيط للعمل الثقافي ، هو تسلية إن شئت ، قد يرضي المتبطّلين من أصحاب الفراغ ، فيهتزّون وينفعلون ويأتون من الحركات البلهاء ما يخرج عن كلّ حدّ ، وهو استعراض سياحي تعرفه ساحات عواصم أوروبا ، في مناسبات لها معلومة مشهورة ، نعم قد يكون هذا وذاك ، ولكنّه ليس الثقافة التي تعرفها الشعوب الراقية ، وتعرفها الشعوب الأخرى التي بدأت تأخذ بأسباب الرقيّ .

وضعنا الثقافي إذن يحتاج إلى مراجعة أساسيّة ، وإلى جهود تبذل بكل جدّ ، فنفرق بين ما هو ثقافي حقيقي ، يخاطب العقل ويهذّب النفس ، ويدفع الناس إلى التأمل في الواقع الذي يعيشون ، وبين ما هو غير ذلك من ألوان التسلية والترفيه ، ثم أن نرفع أيدي محتكري الثقافة ، عن عمل بطبعه هو عام ، ويحتاج تصوّره وتنفيذه إلى أيد كثيرة

وطاقات عديدة ، وبالتّالي فتح الأبواب عريضة واسعة لأهل الذكر والخبرة ، وهم كثيرون ، ولا نشك لحظة واحدة في أنهم مجيبون .

كيف يمكن الخروج من هذا الوضع الثقافي ؟

إن كل إصلاح حقيقي للنهضة بالبلاد ، والخروج بها من مرحلة جمود التخلف والاستهلاك ، إلى مرحلة الإنتاج والتقدم ، يتطلب بالأساس تصوّرا شاملا ودقيقا لكل معاني السلب والإيجاب التي تتحكم في مقدّرات مجتمعنا في مختلف وجوهه الاقتصاديّة والاجتماعيّة ، والثقافيّة ، لذلك كانت النهضات الكبرى التي عرفتها شعوب العالم ، قديما وحديثا ، خلاصة أمينة لفلسفة ما ، ومحتوى إيجابيا لخطاب تاريخي ، توازنت مقدماته ونتائجه واكتملت عناصر الحسم فيه للتصدّي بحيويّة وثبات لكل مفاجآت المستقبل ، هذه التي يحدثها التفاعل الاجتماعي واشتباك عناصره بجديد القضايا الطارئة من هنا وهناك ، لذلك أيضا كان المبدعون الكبار ، من المفكرين والمثقفين والكتّاب ، هم على الحقيقة أصحاب تلك الفلسفة وذلك الخطاب ، لأن من طبائع الأمور التي جرت بها سنن المجتمعات والشعوب والدول ، أن تسبق الفكرة التطبيق والفعل ، وتتمهّد الحركة الواسعة

والضيّقة ، بالرأي والشريعة ، ولا أقدر ولا أجدر من أصحاب النظر والتفكير على ذلك ، مهما كان الادّعاء عريضا ، ومهما امتلأت بعض النفوس بكذب القدرة ، وعنف الهوى والسلطان .

وبالطبع فان هذا الخطاب التاريخي الشامل لم يكتب بعد ، لا في تونس فحسب وإنما في كل الأرض العربية ، وستمضي فترة تطول أو تقصر ، قبل أن يتاح له الظهور ، وقبل أن تتمكّن مجتمعاتنا العربيّة من الانطلاق على هدى من أمرها وبصيرة ، ولكن هذا لا ينبغي أن يقعد بنا عن البحث والتأمل ، لأن مشاكلنا ملحّة ، ما كان منها آنيا وغير آنيّ ، وقد يكون من الخير الصالح ، أن نتوفّر على هذا الخطاب فنجزئه ونقسّمه ، وأن نكل أمر ذلك إلى جماعات عرفت بالتفكير الجيّد والنظر العميق ، فتعدّ خطابها الخاص في هذا القطاع أو ذاك من قطاعاتنا الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة .

وبما أن القطاع الثقافي ، باعتبار دوره الريادي في النهضة التي إليها أشرنا يحتاج من كل مثقفينا الجادين العناية والاهتمام ، للفوضى الطويلة التي استحكمت في أوصاله ، وللاضطراب الشديد الذي خضع له عقودا ثلاثة

وأكثر ، كان أثناءها يتحوّل ويتبدّل دون أن يستقيم على طريق ، فقد تنبغي الآن المبادرة بالحديث عن مضمون لخطاب ثقافي ، تضبط فيه التوجّهات الكبرى ، التي نريدها لثقافتنا الجديدة ، وتحلل فيه المسائل التي لمّا تزل مطروحة منذ أمد طويل ، دون أن تستنبط لها الحلول القادرة على وضع الأمور في نصابها الصحيح ، وتشرح فيه القضايا الثقافيّة والحضاريّة ، التي يواجهنا بها عصرنا الحديث ، على أن نضع في اعتبارنا ، الروح النقديّة التي نتناول بها مجمل هاتيك المسائل والقضايا والتوجّهات ، لأن الأمر ليس أن نتحدّث عن كليّات فكريّة وثقافيّة ، ولكن أيضا أن نشير إلى أنواع السلبيات الكثيرة التي همّشت ثقافتنا طويلا ، وجعلت من مثقفينا عناصر طفيليّة تجمعهم وتفرّقهم المناسبة العابرة وغير العابرة .

ولعل في مقدمة القضايا التي ينبغي أن يعالجها الخطاب الثقافي المقترح ، هي دور وزراة الثقافة في الحركة الثقافيّة ، هل ستظل المسؤولة الأولى في التخطيط والحركة والنشاط من خلال اللجان الثقافيّة المعيّنة ، ومن خلال الدّور الثقافيّة التي تتحرك وفق برنامج لها مرسوم ، سنوي وغير سنوي ؟ أو إننا سنشهد تطورا جديدا ، ينفتح لكل التيارات

الثقافيّة الأخرى ، التي تزخر بها ساحاتنا وبيئاتنا المتنوّعـــة ؟، كما هو واضح فانّي أطرح هنا موضوع الثقافة الموجّهة أو الليبراليّة ، لأننا إلى حدّ الآن مازلنا نأخذ بالأسلوب الموجّه في الثقافة ، رغم أن هذا الأسلوب قد تخلّينا عنه في قطاعات أخرى ، اقتصادية واجتماعيّة ، ومن ثمّة فما هي الصيغة الإيجابيّة البديلة ، التي تضمن لثقافتنا ومثقفينا ، على اختلاف مللهم ونحلهم ، أن يبدعوا وينتجوا الإنتاج الذي يكفل النهضة التي نريد ؟ .

حصاد مؤتمر

لعله يفيدنا ، بعد أن هدأت الأصوات ، وانتهى المؤتمر التاسع للأدباء العرب (تونس 1973) أن نتمعّن قليلا ، في طبيعة الأفكار والنظريات ، التي أعلنت بين المؤتمرين ، وأن نتعرف إلى قمية المستوى الفنّي والأدبي ، الذي كشف عنه النتاج الشعري والأدبي المقدّم ، والذي يبدو أنه لا بدّ من التساؤل في مدخل هذا الحديث ، عن حقيقة تمثيل الفكر العربي ، بكل تيّارته المذهبيّة في هذا المؤتمر ؟

إن المثقفين وعدداً من المؤتمرين أنفسهم ، لاحظوا بانتباه شديد ، غياب وجوه أدبية معروفة جداً في الساحة الثقافيّة العربيّة ، كان قد أعلن عن دعوة البعض منها مسبّقا ، ويظهر أن ظروفا متغايرة ، موضوعيّة وغير موضوعيّة ، قد تدخّلت في ذلك ، وحالت دون أن يمثّلوا وفودهم الرسميّة ، ونحن يهمنا من الموضوع الإشارة إلى حقيقة القيود المعطلة لكل تحرك فكري ، والوصاية المفروضة على كل إنتاج أدبي ، التي تعمد إليها كثير من الأنظمة الاجتماعيّة والسياسيّة في البلاد العربيّة ، والتي

مازالت غافلة عن حقيقة جوهريّة ، وهي أن أي تقدم اجتماعي أو سياسي أو حضاري بعامة ، لا يتحقق ولا يتمّ ، إلاّ في ظلال حركة فكريّة ، وبمستوى من الديمقراطيّة ، خال من أي رقابة قمعيّة ، ظاهرة أو متستّرة ، وأن حق الحرية الأدبيّة ليس صدقة تعطى وإنما هو حق طبيعي مقدس ، من تلك الحقوق الطبيعيّة ، التي تولد مع الإنسان ، والذي تقتضيه ظروف العمل الأدبي نفسه ، ذلك العمل المسـؤول البنّاء ، الهادف إلى تصويب حياتنا ، حتى تنهض على قواعـد راسخة ، من العلم والمنطق والعقل ، هذه الموضوعة تؤدّي بنا إلى موضوعة أخرى ، أثارها أكثر باحث من باحثي المؤتمر ، وهي خضوع الفكر خضوعا كليا ، للتقلب السياسي والأيد يولوجي ، الذي تعاقب على المنطقة العربية منذ أكثر من عشرين عاما ، فقد ظلّ يلهث حتّى الإنهاك ، بين مسافات اليمين واليسار والوسط أيضا ، مبشرا بقيم ومفاهيم تتناقض وتتصارع دومًا ، من أجل الفوز بالمقدّرات الذهنية للإنسان العربي ، فمرة ترتفع شعارات التحرّر الأدبي والفكري ، والإنفلات من كل التزام بخدمة قضايا الشعب والمجتمع ، يقتصر فيها الأديب على تحليل نوازعه الشخصيّة ، ورسم الصور الخارجيّة لحركة الحياة من حوله ، دون تعمق أو نفاذ ، ومرّة تطغى قوانين الواقعيّة وشروطها

الصعبة ، في الإيمان برسالة في الحياة والتاريخ والصدور عن موقف فكري متكامل ، يعالج الكبير والصغير من شؤون الفرد والمجتمع والحضارة ، وتسييل المطابع بالهدف والتقدم والثورة والتمرّد ، وماشاكل ذلك من الأسماء والقوالب ، التي قد لا تدلّ عند الكثيرين ، على دلالة محدّدة لها ، وضبط محكم لأبعادها يمكن أن يفيد في خدمة الانسان المعذّب والمجتمع المنهار ، وثالثة تنجم فجأة ، صيحات غير عاقلة ترفض العقل والمنطق ، وتدعو إلى سيادة مذاهب أدبية وفنيّة تتوسّل بالرّمز والقيم الشكليّة المفرّغة من كل محتوى ، اجتماعي أو غير اجتماعي ، وإنما همها أن تلحق الأدب ـ ذلك الخادم العظيم للحضارة ـ بفنون التشكيل القائمة باللون والكتلة والحركة ، أو أن تردّه إلى طلاسم لا تحلّ معمياتها ، إلا بقدرة تتجاوز المثقف العادي ، وقد لا يمكن ذلك إلا بعد طويل مدة ، وبعد محاولات في الفهم والتذوق ، تستنفذ الطاقة الصابرة وتستنزف الجهد المركّز ، الذي كان أجدى له أن يتفرّغ إلى قضايا هي أشد الحاحاً من ذلك الترف الفنّي والذهني ، الذي تحركه النوازع الفرديّة أو حالات نفسية ، هي أشبه بالمرض منها بالصحّة .

إن الفكر العرّبي المعاصر ، فقد استقلاليته تجاه الأحداث

العارضة وفقد ثقته بنفسه وهو يتعرض للأيديولوجيات الوافدة ، أو وجهات نظر أخرى معلومة ، أو فلسفات في البناء الاجتماعي والسياسي والأدبي جعلته يبحث عن ملامحه الخاصة في وجوه الآخرين ، غرباء ومتآمرين ، الذين أجهضوا لديه كل قيمة يؤمن بها ، وصوّروا له أن الحضارة والتقدم والتطور ، انسلاخ عن النفس والتاريخ ، واندفاع وراء البهرج والزيف ، وجري وراء قيم لا سبيل لها إلى استيعاب الواقع المتخلف ، ومن أجل ذلك فنحن لا نستطيع ـ كمثقفين وأدباء ـ أن نسهم في تغيير الصورة الاجتماعيّة والحضاريّة المتخلفة ، لأننا بالدرجة الأولى ، ننطلق من مفاهيم جاهزة لم نساهم في ابتكارها ، أو الإضافة اليها ، ولم ننفعل بمفرداتها ، وهي بعد متناقضة لأنها متعددة ، وغير مستقرة لأن ظروفا كثيرة تتحكّم في حركتها وتوجهها الوجهة التي تريد والتي هي بالتأكيد ـ في نظري ـ ليست في صالح شعوبنا ومجتمعاتنا العربيّة ، وأنت تستطيع أن تدرك من كل ذلك ، أن الفكر العربي ، هو الآن في ذروة أزماته ، وفي قمة تناقضاته ، وأنه لا سبيل للخروج من محنته ، إلا بالمواجهة الصريحة وبنقد ذاتي ، فيه من القسوة الشيء الكثير ، وأن طريق المراجعة والمحاسبة الدقيقة ، هو ما ينبغي أن يأخذ به ، وأن يقيم عليه حياته المستقبلة ، هذه التي تلبّدها غيمه

التشاؤم واليأس ، وتلعب بمصيرها أهواء جشعة عالميّة وإقليميّة ومحليّة ، وبذلك نوحّد من مفاهيمنا للنهضة والتطور ، ونستطيع أن نسهم بالبناء الثّابت المستقر ، الذي يتطلبه العصر ويحتاج إليه المجتمع .

وأحب أن أتطوّر بحديثي إلى ناحية أخرى استلهمتها من المؤتمر ، وهي وعي المشاركين ، كتّابا وشعراء ، بمحنة الكلمة العربية ، وضعفها أمام المواطن العربي الذي أخذ يستخفّ بقدرتها على النفع ، وعدم جدواها في تحرير واقعه ممّا يكبّله من أغلال التخلف والرجعيّة ، ومن براثن الاستثمار الاقتصادي والسيطرة الاستعماريّة والصهيونيّة ، التي اقتطعت أجزاء غالية وعزيزة من أرضه ، وكان كثير من الشعراء يقومون بعمليّة استفزاز بديعة حقًّا ، فيؤلبون الجمهور على نفسه ، ويدعونه إلى الاستبصار بحقائق الواقع الراهنة ، التي تكرّس الجمود والإنحلال ، ولعلهم يريدون بذلك ، أن يخرجوه من قوقعة الصمت الرهيب الذي اكتنف به ، وأن يستحثّوه للمشاركة والالتحام بقضايا المصير العربي ، التي باتت لا تحرك منه السواكن ، إلاّ سواكن الألم والخيبة ، وانخرط بعض الشعراء الآخرين في نقد ذاتي مرّ ، استهدفت الإعلان بجرأة عن ضياع الوقت في الخطابة

والشعر ، وأن الحياة العربيّة الراهنة لا دواء لها ، إلا حرارة الفعل الصادق ، والجهد المثابر ، وبذلك تتّجه الحياة لدينا وجهتها المعقولة والطبيعيّة ، غير أن قيم الفنّ الصحيحة في القصائد التي ألقيت لم تكن متوفّرة دائما :

أوّلا : ساد الشعر العمودي سيادة مطلقة ، وظهر في المهرجان الشعري ، كأنه الظاهرة الوحيدة الغالبة علي حياتنا الأدبيّة ، بينما هو لون واحد من ألوانها العديدة الأخرى ، والعجيب أن بعض الشعراء ، قد استبدل أداته الشعريّة التي عرف بها بين القارئين ، وهي أداة الشعر الحرّ ، بالقصيدة العموديّة ، وهو سلوك مريب ، فكأن هؤلاء الشعراء ، منهم بعض التونسيين ـ كأحمد القديدي ومحيي الدين خريف ـ لا يثقون باختياراتهم الفنيّة ، ولا بما وصل اليه التطور الشعري العربي والعالمي أيضا ، أو لا يثقون بتطوّر الذوق الأدبي لدى الجمهور التونسي ، غير أن جمهورنا كان في مستوى وعيه المؤمل ، فقد اهتزّ إعجابا بقصيدة « الحضور والغياب في تضاريس جبل الدخان » للشاعر البحريني علي عبد الله خليفة ، رغم عدم معرفة الجمهور له ، ولم يكن من رسول لديه إلا جودتها وروعة مضمونها :

تنامين فوق العباب حقولا

وأطياف ذكـــــرى حميمه

تواريخ ألف من السنوات لهاثا

تنامين يسكن فيك انفجار الزوابع

وأنت بدرب النزوح مناره

تلو حين يقطر منك التوجس ومضا

ويلقاك في العرض والطول

هجس البـــــلاد العظيمة

ثانيا : أن عددا من القصائد العموديّة ، كقصائد الطاهر القصار والهادي المدني وأحمد رامي ، كادت تتنكّر لروح الشعر في مختلف عصور العربية الزاهرة ، إذ بدت لنا منظومات تقليديّة لبعض المعلومات التاريخيّة ، أو سردا لبعض المعاني المكرورة التي لا تمسّ نبض القلوب، ولا تحرك صور الخيال ، والمعلومات نفسها في بعض القصائد - كقصيدة أحمد رامي مثلا - تسيء إلى المؤتمر نفسه والغاية التي عقد من أجلها ، فقد ذكر فيها أن التونسيين من أحفاد

« حنبعل » القرطاجني، والمصريين من أبناء « رمسيس » الفرعوني ، وقد صيغت بطريقة يغلب عليها التكلّف والتفكك وهي تروم الانتقال من موضوع إلى آخر ، ويخيل إليّ أن هؤلاء الشعراء ومن نهج نهجهم ، يعيشون في عزلة فكريّة وفنيّة عظيمة ، فلم نتبيّن في قصائدهم ما استقرّت عليه حياتنا الشعريّة والأدبيّة الحديثة ، منذ الثلاثينات ، بفضل دعوات العقاد ونعيمة وطه حسين ومحمد مندور ، من ضرورة بناء القصيدة بناء عضويًا ، متناميا بالصورة والإيقاع ، وأن أكبر عيب يتجلّي في القصيدة القديمة ، هو تخلخلها وكثرة الفجوات بينها ، بسبب من قيامها على البيت الواحد ، بل إن بعض الشعراء منهم ، يتمسّك بالتقليد حتّى في العنوان ، فلا يختاره مركّزا معبّرا ، وإنما يضع بيتا أو نصف بيت ، ليؤدي مهمّة العنوان الرسميّة ، والقافية ، ماذا أقول عنها ، إنها موحّدة وحدانية ، لا تساوق بينها ولا تراوح ولا تنويعا بل تمضي مطّردة النغمة ، رتيبة الصوت ، في إيقاع منفرد حتّى النهاية ، فما معنى ذلك ؟ إن هؤلاء يريدون تجميد حركتنا الشعريّة ، وربطها ربطا بأسلوب القصيدة الجاهليّة ، ويدعون إلى إلغاء ما طرأ على القصيدة العربية من تطور ، سواء في العصر العباسي أو الأندلسي أو في العصر الحديث ، ولكنهم يغفلون عن أمر أساسي ، وهو

أن الثقافة تتطور ، ومفاهيمها تتجدّد باستمرار نتيجة تجدّد الحياة الاجتماعيّة ، وتجدّد النفس البشريّة تبعا لها ، وأن ما كان سائغا في وقت أصبح غير سائغ في وقت آخر ، ومن أجل ذلك فنحن نعدّ عملهم الشعري غير مستجيب لتلك الحقيقة الأساسيّة ، وبالتالي يخاطب أذواقا بلغة غير لغتها ، وبفنّ لا يراعي الأسلوب الجديد الذي يراعي تطوّر الواقع والنفس والذوق والحياة .

في ازمة الفكر العربي المعاصر

يظهر أن مرحلة الشعارات الخادعة قد ولّت ، وموجة الغناء الرومانسي القنوع قد انحسرت ، وأن الإنسان العربي ، بكتائبه المثقفة وطلائعه الاجتماعيّة المختلفة ، يواجه الآن بقسوة ـ كما لم يكن في أي وقت مضى ـ وقائع أحداث لا يملك السيطرة عليها ، وتوقّعات مصير لا يرقي إلى حدود تصوّرها ، وأنه بات يدرك بعمق ، أن نبوءة التفاؤل المكرور منذ أزمان ، لم تكن إلا محض تخدير ، تنتشر أبخرته ، فتعمى الرؤية وتمتنع البصيرة وتختفي معالم الحياة والمجتمع ، انظر إلى ما حولك ، فلن تجد غير الأزمة ، تستحكم في كل شيء ، تكبل بأغلالها الرهيبة طاقات الإرادة والخيال والتصور ، فتمنعها عن التدبير والتغيير ، وتنأى بالواقع عن أن تمتدّ اليه يد العزيمة والعمل ، فيتحقّق الطموح ، وينتظم فيه منطق العصر الحضاري ، فيترقّى ويتحول وينمو .

هي الأزمة الشاملة إذن ، تستبدّ بكل مظاهر الحياة العربية ، ماديّة كانت أو معنويّة ، فتدفعها إلى مسارب

التعطيل والعجز ، وتفقد بذلك حيويتها الذاتية في العطاء والنفع والإنتاج .

وغير خفيّ أن مسؤولية الفكر ، تجاه أوضاع حياتنا بما ننخبّط فيه من أزمات ، ثقيلة بغير حدّ ، لا يستطيع أن يتفصّى منها ، مهما نهض أمامه من عقبات ، ومهما أقيم حوله من سدود ، لأن المسؤولية تنبع من قوانين الفكر الضروريّة ، وهي شرط من شروطه الذاتيّة ، التي يتحرك بها في مجالاته الحيوية المختلفة ، بل لك أن تقول إن الفكر إزاء حياتنا ، يشكّل معادلتها النهائيّة المختزلة ، التي ينبغي أن نجد لها الحلّ الأمثل المنشود ، حتّى يكون الإنطلاق ويستقيم السعي وتتضح الرؤية ، ولن يتحقق ذلك بغير نقد ذاتي صارم يعلنه للجميع وبغير اعتراف جريء يقرع أسماع القريب والبعيد ، الغافل والنّابه على السواء ، نقطة الإنطلاق إذن ، هي الوعي بمدى قدرة الفكر العربي على مجابهة التحدّي الصعب ، والسبر الدقيق لإمكاناته وطاقاته الكامنة ، حتّى يتهيأ له أن يخرج من دوائره المقفلة إلى الساحة الواسعة ، فيفكّ الرموز المستغلقة للوجود والكون ويكسر قيود مطالبه ممارسا بذلك في الحياة ، مهمته الواجبة المُقدسة .

أكتب هذا وبين يدي محاولات عديدة ، تتصدّى لأزمة الفكر العربي ، وتحاول أن تكشف عن طبيعتها الظاهرة والخفيّة ، مشيرة إلى ألوان القصور التي قعدت بالفكر ، عن أن يؤدي مهامه الأساسيّة في حياتنا العربيّة ، ودرجة الوهن التي انحدر إليها ، فانفكأ بعيدا عن كل تأثّر وتأثير ، وإنك لتجد تلك المحاولات وإن اختلفت جهات صدورها مشرقا ومغربا تتفق في معطيات الأزمة التي نعيشها ، وفي عقم الحلول التي قدمت إلى حدّ الآن للخروج من طوق اشكالياتها ، فهذه مجلة « روز اليوسف » القاهريّة ، ظلت تنشر لمدة طويلة (سنة 1978) آراء صريحة لعدد من كبار كتّاب مصر ، كزكي نجيب محمود وحسين فوزي ونجيب محفوظ ، يدينون فيها واقعنا الثقافي والفكري والأدبي ، ويشرحون الأسباب الكامنة وراء ذلك ، وهذا الكاتب المغربي الدكتور عبد الكريم غلاّب ، يصدر كتاباً بعنوان « الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات » وهو كتاب جيّد في موضوعه الراهن ، ولعل أجرأ تلك المحاولات وأعنفها ما كتبه الدكتور حسين مؤنس بمجلة الهلال ، حول « تدهور الفكر العربي المعاصر » وهذا المقال مهمّ في نظري ، لسببين : أولهما مكانة صاحبه في الثقافة العربية الحديثة ، وثانيهما الجرأة التي عالج بها القضيّة ، فقد رأى أن العقم

يشمل حياتنا العلميّة والأدبيّة والفنيّة على السواء ، وأن الفكر العربي انحدر إلى هوّة سحيقة من الإسفاف والضحالة ، لا عهد للعرب بها في تاريخهم السابق ، وأن الذي يتلقّاه القراء حين يمسون وحين يصبحون ، ما هو غير كلام يرسل إرسالا ، فاذا فحصته لم تجد فيه غير الفراغ والعجز ، وما هو إلا تعبير عن سلائق ، جفّت ينابيع الخلق فيها فدارت في فراغ موحش ليس ذلك في مصر وحدها وإنما يشمل الأرض العربية جميعها ، فان « العام يمضي دون أ ن نظفر في عالم العرب كله ، إلا بكتب قليلة جداً ذات قيمة ، والحالة في ميدان الإنتاج العلمي أسوأ ، الكتب كثيرة ولكنها لا تضيف شيئا إلى مستوى العلم في عالم العرب إلا في النادر ، ومن أكثر من عشرين سنة ، لم نقرأ شيئا مثل الحسن بن الهيثم للدكتور مصطفى نظيف ، أو فجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين ، وابن الرومي لعباس محمود العقّاد ، وفي الشعر الجاهلي لطه حسين ، والإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق أو تربية سلامة موسى لسلامة موسى ، أو مع الله في السماء لأحمد زكي » ولا يكتفي الدكتور مؤنس بذلك ، فيستعرض الأجناس الأدبيّة الأخرى ، كالرواية والقصة القصيرة ، والشعر والمسرح ، فلا يجد فيها إلاّ اليبس والتقصير والتقليد أيضا ، وإن الذين أبدعوها لم

يستطيعوا ان يضيفوا جديدا يذكر ، إلى ما أبدع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ، ومن في مستواهم من أبناء جيلهم من الأدباء والفنّانين ويتساءل بحدّة : أين انتاج الشباب ؟ » ويجيب : لقد خلق الذين سبقوهم أعمالا رفيعة من لا شيء بجهدهم وحده ، وكفاحهم وحده وصلوا إلى القمة ، ورجل مثل العقّاد علّم نفسه بنفسه كل شيء ، ومن وهده الوادي صعد إلى قمّة الجبل ، والجيل الراهن من شباب الوديان ، يتخرجون في جامعات ، وتعلّمهم الدولة دون مقابل وتقدم لهم كل عون ، والحصيلة هي ما ترى ، كتب على الأرصفة ، لا تعلو في أحيان كثيرة عن مستـــوى الأرصفة » ثمّ ينهي مقاله بتساؤل أليم : ماذا جرى للفكر العربي أيها الناس ؟ معلنا أن هناك أسبابا كثيرة من وراء ذلك ، ولكنه لا يحبّ التعرض لها ، لانه يريد طرح القضيّة مجرد طرح « مجرد دعوة إلى مائدة مستديرة ، لعلاج مرض حضاري خطير ، تدهور الفكر العربي تدهوراً ينـــــذر بالخطر » .

فأنت ترى معي إذن ، أن حديث الأزمة الفكرية يتركّز حول نتاج الأجيال الجديدة الشابّة ، وأنها رغم الإمكانات التي قدّمت لها ـ بالقياس إلى الأجيال السابقة ـ لم تستطع أن تقدم

الجديد المبتكر ، الذي يرقي إلى مستوى ما قدّمه السابقون ، هذا في مصر ، فاذا أضفت الى ذلك ما تطالعه في أحيان كثيرة ، بصحفنا ومجلاّتنا التونسيّة ، وما يتناهى إلى سمعك من جدل ونقاش ، حول هزال الأدب التونسي وضعف ما ينشر منه ؛ وانبتات بعض أنواعه عن الواقع والحضارة ، أدركنا جميعا حقيقة الوضع الراهن للفكر العربي والأزمة الحادة التي تحاصره ، وأدركنا في الوقت نفسه ، فساد المبالغات التي يرتفع صوتها الناعم باطّراد ، تطري قصة هذا وتغازل شعر ذاك ، وتشيد بفكر ذلك ، ليس لها من مبرر إلا أن مقتضيات الدفاع عن النفس الاقليميّة ، تتطلب ذلك !!

ولعلّه يبدو من غير الطبيعي أن حركة الفكر العربي ، عرفت ازدهارها وقوتها في فترة ، ربما كانت فيها مقومات السّيادة غير مكتملة ، أو أنها كانت سليبة تماما بأيدي الأجنبي ، وأن الذين نهضوا بها أناس لم تتوفّر لهم بالكامل فرص التثقيف والتعليم ، على النحو الذي يتوفر الآن لأجيالنا الجديدة ، بينما منطق التطور يقتضي الاستمرارية والتصعيد ، واتّساق الجودة الإبداعيّة إلى المدى الذي تخيّله أمل النهضة الحديثة الأولى ، كيف يستقيم في الذهن ، أن

جيل طه حسين والعقّاد والحكيم ومندور ومحفوظ في مصر . لم يخلفه جيل آخر يتبوّأ مكانه ، ويملأ الفراغ الذي حلّ برحيل أغلبهم ، رغم الجلبة التي تثار دائما في الصحف والمجلات ، عن الواقعيّة والتجديد والرؤية المستقبليّة ، وغير ذلك من العناوين والشعارات وهل يعقل أن جيل الشابي والحداد والفاضل ابن عاشور وحسن حسني عبد الوهاب ومحمود المسعدي ، لم تزل مكانته شاغرة ، وتقصّر همم الأجيال الجديدة ، التاليّة عن أن تبلغ مشارفها العالية ؟ ولا ينبغي أن تصدّق المحاولات العديدة ، التي نظمت لتقرير أن الشابي ليس بالشاعر الملهم ، أو أنه لا يتفرّد بموهبة خاصة دون غيره من شعراء تونس ، فما هو إلا كلام أملته حالات عارضة ، تداعب أنانية تستعذب التهويم في الفراغ ، كذلك لا ينبغي أن تكترث بما يقال من أن جيل القصة الجديد ، يتجاوز الروّاد في أدبها الحديث ، فما هو إلا كلام يقصد به خدمة شخصيّة معينة ، قد تكون لفرد أو جماعة ، أكثر من أن يكون حديثا له صلة بخدمة الحقيقة الأدبيّة بحال .

وحديثنا هنا بطبيعة الحال ، لا يتجّه إلى عقد مقارنة نقدية و بين هذا الجيل أو ذاك ، أو محاولة تقديم جماعة

على أخرى ، وانما لغرض الوقوف عند ظاهرة هذه الأزمة الفكريّة ، التي لا تقتصر على تونس أو مصر وحدهما ، وإنما تشمل كل أجزاء الوطن العربي ، ورغم أن الوقوف عند مظاهر الأزمة مفيد إلى أبعد حدّ ، ورصد الاتجاهات الأدبيّة والفنيّة ، ومقارنتها بغيرها السابقة عليها ، يحقق خدمة مهمة للمجتمع والفكر والتاريخ ، فان كل ذلك لا يخرج بنا عن العالم السلبيّ الذي نعيش بين جدرانه الضيّقة ، إذا لم نتعمّق الجوهر وندرس الأسباب الحقيقيّة ، التي أثّرت في اتجاه التطور ، وتوقّفت به عند مرحلة لا تلّبي احتياجات شعبنا الملحّة ، ولا تواكب الطموحات التي تغلغلت في كيان أمة ، صمدت لتحديات أكبر على مدى التاريخ .

والسؤال هو : هل يمكن القول : أن الأزمة العربيّة الراهنة ، بكل أوجهها الفكريّة والاجتماعية والسياسية ، هي أزمة حكم بالدرجة الأولى ، فشلت قياداته أن تستنبط الحلول الايجابيّة للمجتمع الذي ينبغي أن يتطور ويتقدّم ، وللفكر أن يتغيّر ويترقّى ، وللإنسان أن يمارس مهامه في البناء والتشييد وصنع الحضارة ؟

نعم إن ذلك صحيح فيما أرى ، فمنذ أكثر من عقود

ثلاثة على الأقل ، أي منذ أن بدأ العرب يسترجعـون سيادتهم ، ويتحرّرون من قيود الاحتلال الأجنبي ، والأوضاع السياسية والاجتماعية في المشرق والمغرب العربيين ، تنقلب وتضطرب ، كأشدّ ما تكون الفوضى ، انقلابا واضطرابا ، جماعة تتشبّث بكراسيها الوثيرة ، تمنح لنفسها ما تعتقد أنه حق من حقوقها ، وأنها مهيّأة أكثر من غيرها ، لحكم البلاد وتوجيه سياستها إلى الوجهة التي تريد ، وجماعة أخرى أو جماعات تعمل في الخفاء وتتحرك في الظلال ، وتسكن الزوايا والمنعطفات ، تعدّ الخطط المحكمة أو غير المحكمة ، لتثب في وجه الجماعة الأولى وتزيلها عن القيادة ، وتتولّى الحكم وتمارس السلطة والسلطان ، غير أن الأمر لن يستمرّ طويلا ، فستتحرك الجماعة الأولى ، أو جماعات أخرى جديدة وتزيل القائمين بالأمر ، وسنظل نترقّب حتّى تزول ثم ترجع ثم تزول ، وهكذا دواليك باستمرار .

كل ذلك يتمّ ، والجماهير العربية العريضة ، غائبة أو شبه غائبة ، أو هي إن شئت الدقة ، معزولة عزلا قاسيا ، تحيط بها السدود والقيود ، وتسبح بها أضواء الفرجة والإعلان ، ويقدّم لها من ألوان الحديث والخبر ، ما يطمس الوقائع الجارية عنها ، ويدفع بها إلى ظلمات الوهـم

والسكون .

لقد انحرفت بذلك أداة الحكم العربي ، عن أن تكون أداة بناء ،ونهضة وتطور وحضارة ، تخدم المجتمع ، وتبني العقل والوجدان ، وتحقّق آمال الأجيال ، واختزلت مهمتها في نوع من الضبط والتدقيق ، يتيح لها أن تستقرّ في السدّة العزيزة أطول مدة ممكنة ، وأن تستعذب خلالها ، أحلى ساعات الليل والنهار ، ولم ينشأ ذلك الإنحراف عن عفويّة وطيبة نفس ، وإنما نشأ عن خطأ في التقدير والقياس أيضا ، فقد توهّم الكثيرون أن الاشتراكيّة والثوريّة والتقدميّة بعامة ، تتنافي وحكم الجماهير وحكمتها ، وأن هذا الفكر الجديد ، وترسيخ جذوره في أرض الواقع العربي ، لن يتمّ إلا بالغاء الإرادة الشعبيّة الديمقراطيّة ، وإلا بأن تفرّغ الأشكال الديمقراطية القائمة من كل محتوياتها الصحيحة ، وتعبّاً بالشعارات المتنوعة ، التي تضطرب لها الأسماع في كل الأوقات .

إن اسوأ ما تصاب به الأمم ، في التاريخ القديم والحديث ، أن ينشأ بينها من يدعو إلى التفكير بالنيابة ، أو من يقول إن المصير التاريخي يمكن أن يحسم برأي فرد أو أفراد ، أو من يزعم ان الديمقراطيّة ليست حقّا لكل أبناء

الشعب ، وإنما هي وقف على أفراد قلائل أو جماعة ضيِّقة مختارة .

ليست القضيّة محاكمة نظريّة ، تتكافأ فيها الأدلة أو لا تتكافأ ، وإنما هي الحقائق العينيّة التي يعرفها الناس جميعا ، وفي المقدمة الكتّاب والشعراء والمفكرون ، ويصابون فيها بكل ألوان البلوى والعذاب ويشقون بها دائمـــا .

نحو ثقافة قومية

كتب الشاعر المعروف أحمد عبد المعطي حجازي ، بمجلة المصورّ القاهريّة (أكتوبر 1987) مقالا هاما ، عنوانه « ثقافة ملوك الطوائف » تحدث فيه بصراحة ، عن الوضع الراهن للثقافة العربية ، والوهن الشديد الذي أصاب أطرافها ، فتيبّست عن أن تؤدي مهمتها في خدمة الأمة العربيّة ، والنهوض بالفكر العربي ليمارس إبداعاته ، في عصر لا يعبأ بغير العقل ، طريقا إلى الحديث والنهضة ، وبغير العلم ، وصولاً إلى السيادة الكاملة ، والحفاظ على الكيان الاجتماعي والقومي من الذوبان ، وقد رأى الشاعر الأديب « أن الثقافة العربية الآن تمرّ بعصر ملوك الطوائف .. لقد فقدت وحدتها ، وأصبحت ثقافات ، لم تعد ثقافة أمة ، صارت ثقافة طوائف » .

والحق أن هذه التجزئة الضيّقة ، التي تتحرك بها الثقافة في هذا القطر أو ذاك من أقطار العروبة ، هي المسؤولة بالأساس ، عن كل ألوان الفشل والإحباط ، التي أصابت جهود المثقفين العرب ، حيثما كانوا ، بما في ذلك مصر ،

حيث يحاول شاعرنا الكبير أن يميّزها عن غيرها من البلاد العربية ، فقد وجدوا أنفسهم عاجزين ، عن أن يخلقوا فكراً عربيا متميّزا ، يعبّر عن واقعهم الاجتماعي والحضاري ، ويصلهم بحضارة عصرهم المتطوّر، وظلّوا إلى حدّ الآن ، يقتبسون ويشرحون ، ما يتراءى لهم أنه الخير والصواب ، في الفكر الأوروبي الحديث ، جاعلين من هذا الفكر النّموذج الكامل ، الذي ينبغي أن يحتذى ويقتدى به في كلّ الأحوال ، ومع ذلك فان هذا الفكر ، لم يصل إلى النفوس والأذهان في صورة واضحة دقيقة ، بل أضحى في كثير من الأحيان ، مصدر بلبلة وتشويه وفوضى ، أصابت العديد من مثقفينا ، فضلا عن جماهيرنا ، بالعقم والتقليد والجفاف ، ويتجلّى خطر التجزئة هذه ، في أن المشاريع الثقافيّة الكبرى التي تستطيع بجدارة أن تؤثر عميقا وبعيدا ، في الكيان الاجتماعي للأمة ، وفي خلق أجيال حديثة ، تؤمن بقيم التحرّر والتطور ، لا يمكن أن ينهض بها بلد عربيّ واحد ، مهما اتسعت به الثّروة ، أو توفّرت له الكوادر الصالحة و خذ دور النشر مثلا ، إنك تراها كثيرة في البلاد العربيّة ، ولكن مداها محدود ، وهي عرضة في كلّ الأوقات للمصادرة ، والوقوع في سلبيّات العمل التجاري ، الذي ندرك مبلغ ضرره بالصالح العام ، لو اختزل المسؤولون هذه الدّور في مؤسسات

قليلة ، ودعمّوها الدّعم الذي تحتاج إليه المشاريع القوميّة الكبرى ، لتغيّر الوضع ولاختلفت النتائج بالتأكيد ، ولأصبح القارئ العربي مهما نأت به الدار ، يجد ضالّته الفكريّة والثقافية من أيسر السبل وبأقل التكاليف ، ولأضحى يصاحب المفكرين والأدباء الذين عرفوا بجدّيتهم ، وبقوة خطابهم المتميّز ، والذين ظلوا مبعدين عن الساحة الثقافيّة الواسعة ، بدعوى تشجيع الفكر المحلّي والأدب الوطني .

وبالسبب نفسه ، نعلل خيبة أكثر مجلآتنا العربيّة ، وأنت تعرف أنها سريعا ما تذبل ثم تموت ، وإذا تواصلت في أحوال نادرة ، فإنها لا تكاد تغني إلا في أضيق الحدود ، إذ الطاقة الفكريّة والأدبيّة لأي بلد عربي ، لا تكفي بمفردها ، أن تغذّي جماهير عريضة ، ظامئة إلى المعرفة والفكر والثقافة ، أو أن تكوّن نخبا ذات اقتدار ، ترتفع به إلى ذرى الخلـق والابتكار ، وصياغة مستقبل جديد ، وإني لأذكّرك بمجلتين رائدتين ، في حياتنا الثقافيّة العربية ، الأولى هي مجلـــة « الرسالة » لصاحبها أحمد حسن الزيّات ، فقد استطاعت هذه المجلة إبّان الثلاثينات ، أن تستوعب خيرة أقلام العربية ، مشرقا ومغرباً ، وبالتالي أن تقدم لقرائها ، الفكر والثقافة الراقية ، بل أنها وضعت بين أيديهم ، دائرة

معارف شاملة لكل فنون الأدب والثقافة ، بما في ذلك الآداب الأجنبيّة ، دون تحيّز لهذا على ذاك ، والكبار الذين ظلوا يبدعون إلى آخر حياتهم ، كالعقّاد والمازني والحكيم وطه حسين ، هم نتاج لبيئة مدرسة الرسالة ، والثانية هي مجلة « الآداب » لصاحبها الدكتور سهيل إدريس ، فقد أثّرت هذه المجلّة في الفكر العربي الحديث ، تأثيرا بعيد المدى ، واستطاعت باقتدار ، أن تكون منبرا عاليا وجهيراً لأهم الأصوات الأدبيّة ، والفكريّة العربية ، وكم كانت رائعة حينما مكّنت كلّ الآراء من أن تتحاور وتتناقش وأصّلت بذلك أصول أدب الحوار والبحث والجدل .

وأنت تعلم ـ أيها القارئ – أن هذه التجزئة أضرّت بأدبنا العربي ، على مستوى آخر ، هو مستوى العلاقة بالآداب الأجنبيّة ، وبالمؤسسات ذات الصلة باسناد الجوائز العالميّة ، فان كل بلد عربي مهما كان حجمه ، يحاول أن يظفر بالسبق ، ناسيا أن الأدب العربي يؤلف بوحداته المتعدّدة في هذا البلد العربي أو ذاك كليّة لا تتجزأ ، وأن بداهة المنطق والمصلحة ، تقضي بأن نبحث عن الشاعر أو الروائي أو المسرحي هنا وهناك ، الأجدر حقيقة بالانتخاب والتقديم ، وبذلك يضمن كل بلد عربي أديبا يستحق الفوز ،

وبذلك أيضا نضمن مقارنة عادلة بين أدب عربيّ قومي ، وبين أدب آخر ، في دنيانا الواسعة .

في عالم الكتابة العجيب !!

لقد كتب الكثير عن فوضى الحياة الأدبيّة العربيّة ، وطغيان مؤسسات النشر والاقتصاد والسياسة في توجيه الفكر والأدب والثقافة ، نحو غايات وأهداف لا تخدم الإنسان العربي ، الخدمة الواجبة ، التي هوبها جدير ، وإنما هي أدوات تعطيل وتلهية وتعجيز ، تنحرف به غالبا عن النظر الجاد إلى واقعه ، وإلى تقرير حقيقة مستقبله على النحو الذي يريد ، بل إنها أصبحت في أوقات كثيرة ، من أخطر أساليب الهيمنة ، التي زيّفت الإرادة والأمـل والطموح ، فغرست في المجتمع هذه العقليّة الضيّقة التي تسخر من كل قيم الحضارة ، وتتيح للفرد أن ينخلع عن جماعته الصغيرة والكبيرة ، جريا وراء هدف صغير وقريب ، وتحقيقا لمآرب تفتقد شرعيتها الأخلاقيّة والانسانيّة غالبا .

ولكن يبدو أن حياتنا الأدبيّة هذه ، ليست غريبة في عصرها ، ولا منقطعة الجذور عن بيئات أخرى في هـذا العالم ، فقد قرأت أخيرا بالعمل الأدبي (25/6/87) ملخّصا وافيا عن « فضيحة أدبيّة كبرى تهزّ فرنسا أعلن عنها

التليفيزيون الفرنسي في أحد برامجه الثقافيّة ، وتناولتها الصحافة الباريسيّة بما هي به أهل ، بطلها كاتب فرنسي ، دأب منذ وقت بعيد على نشر روايات قصصيّة باسمه ، دون أن يكون له فيها أي جهد يذكر ، إسم الكاتب هذا هـــو « سوليتزير » وقد اعترف بجرأة نادرة « أنه فعلا لا يكتب رواياته وحده ، بل يعتمد على معونة عدد من المساعدين ، ولم لا ؟ حين أقرّر وضع رواية عن حياة أحد كبار رجال المال مثلا ، أطلب من المساعدين أن يجمعوا لي أكبر كميّة ، وثائقيّة عنه ، من هذه المعلومات أنسج حكاية ، بحبكة دراميّة وعقدة وأحداث ، ثم أكتب بعد ذلك روايتي في دفعة أولى ، تصل خمسين أو مائة صفحة ، تبعا للحالات ، وأرسل بهذه المسودة إلى الكاتب الروائي « لودران » ، فينقدها ويقترح عليّ حذف بعض المقاطع ، أي أنه يوجهني ، ثمّ يعمل بدوره على صياغة الرواية من جديد » وحسبما ذكرت « العمل الأدبي » فان الرجل نشر الكثير من الروايات باسمه ، وقبض من الأموال أرقاما خياليّة ، جعلته من المعدودين بين الأغنياء الكبار .

وكما هو واضح ، فان للقضيّة طرفين ، أحدهما تاجر جشع ، يجيد استغلال غيره كأبشع ما يكون الاستغلال ،

وثانيهما أصحاب مواهب أدبيّة ، لم يستطيعوا الخروج إلى السوق الأدبية ، أمام حواجز النشر السميكة ومواصفاتها الحديديّة التي لا تتحقّق إلا بحسبان ، وبالطبع فان ظروفهم الاجتماعيّة تقدّم لهم التبرير الذي إليه يحتاجون ، هي قضيّة غريبة كما ترى ، وأغرب ما فيها هو الخديعة التي ذهب ضحيتها القراء ، وما قد ارتبطوا به من صلة مع صاحب الكتاب ، بل وما قد توصل إليه النّقاد بمناهجهم المختلفة ، من تقرير سمات معينة ، وخصائص محدّدة لأسلوب روائي شهير ، لم يكن في الحقيقة إلا مزيفا من نوع خاص ، فاذا توقفوا طويلا أمام تباين أجزاء الرواية الواحدة (باعتبار أن كتّابها متعددون) وقرّروا بوثوقيّة أهل الخبرة النقديّة ، أن خطابها الروائي ثري وجديد ، وأن مستوياتها تتدرّج على مهل ، لتحقق الفوز الفنّي الذي تطمح إليه الكتابة الروائيّة في عصر التكنولوجيا ، فهو العقم والخسران ، وهو البناء على الرمال المتحركة ، وسط صحراء تهبّ عليها هـوج الرياح !

إن هذا ولا شكّ ، من أمراض الحضارة الأوروبيـة الجديدة ، التي تحكّم فيها الإستهلاك اليومي ، وخضعت في كثير من جوانبها إلى خدمة المؤسسات الكبرى ، وما ينبغي

أن يكون لها من فكر سائد معين تتكيّف به هذه العقول والنفوس ، وتتلهّى به في يومها وغدها ، وإذا كانت الأعمال الأدبيّة لا تتجلّى فيها هذه الخطورة ، لأن تأثيرها بطيء وغير مرئي ، فان كتب الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، التي تؤلف حسب الطّلب ، تجعل القضيّة في الإطار الذي أحب الإشارة اليه ، فلقد قرأنا ـ منذ مدة طويلة ـ كتبا ودراسات ، عن الأوضاع العربيّة في مختلف مجالاتها ، ووزّعت توزيعا واسعا شرقا وغربًا ، تشوّهت فيها الحقائق تشوّها غريباً ، وقدم فيها الإنسان العربي تقديما مضحكا ، وصوّر فيها التحضّر العربي العريق تصويراً شائنًا يخرج منها القارئ الأوروبي ـ وأحيانا العربي ـ وهو يعجب لهذه الكيانات التي تحاول أن تعيش وتحيا ، كبقيّة كيانات الدنيا ، يقرأ هذه الكتب والدراسات ، قرّاء من أوروبا وغير أوروبا ، ويروّجون لها بكل سبيل ، وهم لا يعلمون أنها كتبت بنفس أسلوب صاحبنا ـ سوليتزير ـ إن كثيراً من مؤسسات البحث الاجتماعي والاقتصادي ، في أوروبا وأمريكا ، وفي بلادنا العربيّة أيضا ، تنجز العديد الوافر من الدراسات في مجالات البحث المختلفة ، ولكن هناك من يقف بعيدا في الظل ، ليستغلّ هذه الجهود ، ويوظّفها على النحو الذي يخدم الإساءة إلى العربي ، ويضرب الجهود الكبرى التي بذلها

العرب ، للنهضة والتحرر والتقدّم .

إن هذه القضيّة التي تعيشها الحياة الأدبيّة في فرنسا ، هي وجه آخر من وجوه السرقة الأدبيّة ، التي ظلت تظهر أيضا في بلادنا العربيّة ، فترة بعد أخرى ، ولكن الفرق أننا أصبحنا إزاء « سرقة بالغصب » تكسّرت فيها إرادة الكاتب الفرنسي - في الحيّز الذي ظهرت به القضيّة - أمام سطوة المال وبريقه ، وأمام قوة المؤسسات المتخصّصة ، واحتكارها الرهيب لمنابر النشر والإعلان .

بين اديبين

كثيرا ما تعقد المقارنات بين الأديب العربي كاتباً وشاعراً ، وبين الأديب الأوروبي والأمريكي ، بهدف إبراز المسافة القصيّة ، التي تفصل بينهما في طبيعة القضايا التي يطرحانها ، وفي مستوى التأثير المتفاوت ، الذي يشعّان به على القراء ، وفي المنزلة التي يحتلها هـذا دون ذاك ، في المجتمع والحياة وتواريخ الآداب المقارنة ، إنه أمر لمهول حقّا ، أن نكتشف نوع هذه الحياة الرائعة التي يعيشها الأديب الأوروبي والأمريكي ، ومدى سلطانه غير المحدود على من حوله من الناس ، بعيدا وقريبا ، وقدرته الدائمة على أن يجأر بكلمته ، فلا تقف أمامها سدود أو قيود ، يطلقها متأنّقا أو غير متأنق ، لا همّ له إلا أن يصوغ التجربة ، كما وعتها الذاكرة والوجدان ، وإلاّ أن يبدع الجديد من أمر نفسه ، وأمر غيره أيضا ، فتتداعى أمامه في الأفئدة والعقول ، صور الأحاسيس الحارة ، ورؤى الحياة العميقة ، وقد تجرّدت من يبسها وسرابها ، وانطلقت تمجّد الحياة والحرية والإنسان ، إنها حياة لا يمكن أن تقارن بحياة هذا

الأديب العربي البائس ، الذي تحاصره الظروف العامة والخاصة ، وتضغط عليه الجماعة ، مؤسسة وأفراداً ، فينعزل حيناً ، ينشئ أحاديث خافتة لا تبلغ الإسماع ، يصوّر بها كآبة القهر والذلّ ، وبؤس الضياع اللاّمجدي ، في صحراء الخيبة والتيّه ، ويظهر حيناً آخر ، فينحرف به التيّار إلى تكريس الجاهز السائد ، قبل أن يدرك في الآخر أنه افتقد الجوهر ، الذي تسوّى به الكلمة الحقّ ، ولا يكون الأدب أدباً إلاّ به ، وقد يتمرّد حيناً ثالثاً ، فيمارس مهمته التي خلق من أجلها ، دفاعا عن قيم الحق والحريّة ، وتأسيساً لحركة الحياة الجديدة ، في مجتمع يريد أن ينهض ويتطور ، ولكنه لا يستطيع أن يصمد طويلا ، فأمامه صلابة جدران عالية ، تعزل الكلمة عن المدى الذي ينبغي أن تصير إليه ، بل قد تتحولّ في ظل هذا الانفجار الإعلامي ، إلى إزعاج وضجيج ينبغي أن يسكت صاحبه ، راضياً أو غير راض .

ما هو الحلّ إذن ؟

إن الذي أعتقده ، أن الأديب العربي ، الأديب الأصيل بحق ، في ظل ظروفه الراهنة ، لا يملك إلا أن يختار حلاً أوحد هو الحلّ الأصعب ، هو الطريق غير المعهودة ، التي تكتنفها العقبات والصعاب ، والآلام أيضا ، وبذلك يخلص

الأديب لما امتلأت به نفسه من معاني الخير والكمال الإنساني ، وما امتازت به ملكاته ، من مضاء وعزم وإرادة ، لا محالة أن الضباب أمامه كثيف ، وأن خط الوصول لا يبدو في أفق قريب أو متوسط ، وأن كل تحوّل يفاجئ بالأردء والأسوء ، وقد يكون رجوعاً إلى الوراء ، ولكن متى كان التغيير سهلا ، ومتى كانت الجاهليّة العمياء واعية بالخير الذي يراد لها ؟

تدرك هذا متفائلين مع ذلك ، لعلمنا بدرجة الصراع العنيف الذي خاضه الكاتب والأديب الأوروبي ، ضدّ الجمود الفكري والعقائدي ، في الفرد والجماعة ، وضدّ مؤسسات المجتمع الاقتصاديّة والاجتماعية والثقافية ، وما تحمّله في سبيل ذلك من تضحيات ، تحفل بها كل كتب التاريخ الأدبي والسياسي ، وإذا كانت حياة هذا الأديب الآن جيدة ومغرية في آن ، فهي مدينة ولا شكّ ، لتلك التضحيات الجسام التي تعاقبت على مرّ القرون ، وكانت منارات بالفعل ، في طريق النضال الفكري لكل أبناء عالمنا .

والذي أعتقده أن القضيّة بعد هذا ، ليست أن يطالب الأديب العربي بمنزلة اجتماعيّة ، تضاهي منزلة زميله الأوروبي ، فتلك إمكانيّة لا سبيل إلى أن تتحقّق ، في ظل

أوضاع وظروف متخلّفة ، تخلّفا رهيبا ، وإنما أن يناضل الأديب لتجذير قيمه ، تجذيراً يرفع من شأن الإنسان ، ويعمّق بعيداً درجة الوعي فيه ، حتى يدرك كم هي بائسة هذه الحياة التي يحياها ، وسط غياب لشروط حقوقه الإنسانيّة والاجتماعيّة ، ومن هنا فانّ الحديث عن تجارب أدبيّة وفنيّة جديدة ، في مستوى ممارسات الأدب الأوروبي المعاصر ، كالرمزيّة الموغلة في رمزيتها ، والسورياليّة ذات الإشارات البعيدة ، وفنون القول الأخرى ، الصادرة عن نوازع غامضة في النفس الباطنة ، يصبح أمراً محيّرا حقّا ، فقصائد كثيرة وقصص عديدة في تونس وغير تونس لا تسلم لك مفاتيح فهمها بسهولة ، حتى لأكثر النقاد تخصّصا في هذه الألوان الأدبيّة ، إنها معقولة بالنسبة للقارئ الأوروبي ، الذي تكاملت مؤسساته الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ، وتهيّأ لطرائف ألوان الصور الجميلة ، ومبتكرات الأخيلة المجنّحة ، ولكنها غريبة عن اهتمامات القارئ العربي ، الذي يهمّه بالدرجة الأولى أن يعرف ويفهم نفسه ، والحياة التي من حوله ، والمجتمع الذي يضطرب فيه ، وما يكمن في كل ذلك ، من عوائق تصدّ عن الانطلاق والتحول والتغيير ، .

إن الأديب العربي ، لن يجد نفسه في الأشكال والقوالب

الأدبيّة الأوروبيّة أو حين يتبع مسارها خطوة خطوة ، موسماً فموسماً ، وإنما يجدها حين يتعمق وجوده في التربة التي أنبتته ، ووسط ظروف الدمار الإجتماعي والإنساني التي يحياها ، وأثناء معالجة القضايات الأساسيّة التي ترهق الفرد والجماعة والشعب بعامة ، عندئذ فقط - فيما أرى - يكتشف ذاته الأدبيّة المبدعة ، فينشئ بها الأثر الفني ، الذي يفجّر طاقات الخلق الاجتماعي والسلوكي ، ويسهم في عمليّة التحول التي تردّد المجتمع أمامها طويلا ، وبذلك فقط أيضا ، ينال المكانة التي هو بها جدير في بلده وبين أبناء قومه ، لا هناك بعيدا ، حيث يتطلع الكثيرون .

الأديب الكبير والأديب الصغير !!

عرفت الساحة الأدبيّة العربيّة ، في أوقات مختلفة ، ولعدة عقود أيضا ، ظاهرة أدبيّة غريبة ، لم يهدأ الحديث عنها إلى حدّ الآن ، هي ظاهرة الشكّ في آثار العديد من الشعراء والكتّاب ، ارتبطت أسماؤهم دائما بالمنصب الرفيع والمكانة الاجتماعيّة العالية ، والشهرة العريضة التي تجتاز الحدود وتملأ الأسماع ، وتستأثر بالصحيفة والمجلّة والكتاب ، وكلّ ماله صلة بجهاز الإعلام ، صغيرا كان أو كبيرا ، بدءاً بأحمد شوقي أمير الشعراء ، الذي ادّعوا أن مسرحيّاته الشعريّة ، شاركه في وضعها كاتب آخر ، له به صلة متينة ، لأن شوقي لم يتخصّص في المسرح إبّان دراسته في باريس ، ومروراً بطه حسين ، الذي ذكر سكرتيره فريد شحاته ، في كتاب له أحدث ضجّة كبرى ، أنه كان يساعد عميد الأدب العربي في صياغة كثير من النصوص ، بل إنه كان في أوقات عديدة يترك له إتمام أعمال لم يتهيأ له أن يفرغ منها ، وقريب من هذا ، ما ذكره الأديب المخضرم عبّاس خضر في كتابه « خطى مشيناها » عن محمود تيمــور ، الروائي والقصاص والمسرحي الشهير ، أنه كان

يعتمد في كتابة مسرحيّاته التاريخيّة على آخرين ، يهيّئون له المادة الأساسيّة ، مرتبة ومبوّبة ، ويتركون له أمر إخراجها في صورتها النهائية .

أمّا يوسف السباعي فقد اتّسع القول حوله بعد وفاته ، اتساعا عجيبا وغريبا ، فقد كان يكتب ما يعنّ له ـ كما يقول ناقدوه ـ ويدفعه إلى بعض معاونيه ، كالدكتور عبد العزيز الدسوقي ، فيغير ما يجب أن يغيّر ، ويصلح ما هو في حاجة إلى الإصلاح ، ويحتجّون لذلك ، بالأخطاء النحوية واللغوية المثيرة التي كان يقع فيها السباعي ، إذ يخطب ويناقش في هذا المؤتمر أو ذاك ، من مؤتمرات الأدب الكبرى والصغرى ، وانتهاء بسعاد الصبّاح الشاعرة المعروفة ، وما ذكرته بعض الصحف العربية ، من استغلالها لقرائح خفيّة ، وأنّ دورها لا يتجاوز القراءة والإنشاد ، ولم لا نذكر ما يعرفه الكثيرون في تونس ، عن عدد من الكتّاب ، يطلبون إلى بعض مرؤوسيهم ، أن يعدّوا لهم دراسة تصلح محاضرة أو خطابا ، تلقى بمناسبة ذات شأن ، ثمّ بعد مضيّ مدة تضعف فيها الذاكرة ويسود النّسيان ، يدرجونها في كتاب ، يكون مناسبة تكريم وحفاوة بهذا الأثر البليغ ، الذي يفتح عهداً جديداً في دنيا الكتابة والإبداع ! !

وأحب أن أعقد بما تقدم سبباً ، فأشير إلى ظاهرة أخرى هي حبّ الانتشار والذيوع ، والتوسل إلى الشهرة بكل سبيل ، فكثير من الكتّاب والشعراء ، يزهقون من الوقت والطاقة في تلميع الإسم والصورة ، ما لا يقاس قليلا أو كثيرا ، بالوقت والجهد الذي يبذل في إنجاز الأثر الأدبي وتجويده ، ويتّخذون إلى ذلك طرائق وأساليب ، فهذا يحتمي بمنصبه الكبير ، وصولته التي لا تحدّ ، فيدفع بالخاطر المتعجل الفطير ، وبالأسلوب الذي لم تتماسك مفرداته إلى النشر السريع ، دون تقدير لعواقب الأمور ، وما تنتهي إليه دائما ، بعد فقدان الصّولة ، وذهات البأس والقوة ، في الحياة وبعد الممات ، من حساب عسير ونقد قاس ، لا يبقي ولايذر ، غير الفراغ البائس ، يجترّه صاحبه فيتقطّع له حسرات ، وهذا أديب في بداية الطريق ، تهوله الصعاب وتفزعه مشقّة التمرّس والتكوين ، فينحرف إلى السهل السائغ ، ويتخذ له من هذا الصنم قدوة ، ومن ذلك الأفعوان إماماً ، ويبدأ بالكلام المعسول ، يداعب به الغرور والزّيف ، والشعر والنثر ، الذي يغيّر الحقائق ويقلب الوقائع ، متوهّما بذلك آنه أصاب الاختيار إلى الشهرة السريعة ، وأدرك المنبر الذي يبلغه إلى حيث يريد ، وهو واهم بالطبع لأن التنزيل النقدي الصحيح في آخر الأمر ، لا يخضع الاّ للواجب الذي

يمليه الضمير الحيّ ، وإلا للصدق الذي تحتّمه المسؤوليّة ، وبالتالي فالأديب الصغير يبقى دائما صغيراً ، والموهبة المحدودة تظل منعزلة ، ولو غرقت في بحار من الأصداء والأضواء .

لقد توهّم الكثيرون من طلاّب الشهرة السريعة ، بغير استعداد وتمكين أن طه حسين والعقاد حظيا بهذا الانتشار العظيم ، وبهذا الحضور الدائم ، في الساحة الضيّقة والواسعة ، لما لهما من صلة متينة بمؤسسات الاجتماع والسياسة ، وبما عقدا من علاقة بدور النشر والصحافة ، فالعقاد ارتبط اسمه بحزب الوفد المصري وبصاحبه سعد زغلول ، وكان في وقت من الأوقات يلقّب بكاتب الوفد الأول ، وصاحب القلم الذي تنتظره الجماهير الشعبيّة لينقل إليها حقيقة الموقف ، وما يكمن خلفه من ملابسات ، وطه حسين ارتبط اسمه أولاً ببعض أحزاب الأقليّة الأرستقراطيّة ، وما كانت تتمتّع به من نفوذ واسع في دوائر المال والاقتصاد والسياسة ، وأخيرا بحزب الوفد الذي عيّنه وزيراً للمعارف ، قبل أن تقوم ثورة جمال عبد الناصر ، وتطيح بكل المؤسسات القديمة ، نعم إن الأمر من حيث الشكل صحيح ودقيق ـ كما يقول رجال القانون ـ ولكن الأخذ بالظّاهر منه

مغالطة وتلبيس ، فلم يكن العقاد نكرة حين انضمّ إلى الوفد ، ولم يكن طه حسين غير لامع ، حين ارتبط بهذا الحزب أو ذاك ، وإنما كانا معروفيـــن ومشهورين ، من قبل ومن بعد ، لأن العقاد انفصل عن الوفد في وقت مبكّر ، ومع ذلك فقد استمرّ فاعلاً مؤثّرا ، في قرائه وفي الساحة العربيّة عموماً ، ولم ترجع شهرتهما قطّ إلى هذه المؤسسة أو تلك ، وإنما مصدرها جهدهما في الدرس والتحصيل ، والتوفّر الدائم على صقل الموهبة ، والترويّ العميق في إعمال الرأي والبحث والتحقيق ، بل الصحيح أن نقول ، إن تلك المؤسسات الحزبية والصحفيّة مدينة إلى حدّ بعيد بالإشعاع الذي صارت إليه ، والمستوى الذي بلغته ، إلى انضمام العقاد وطه حسن إليها ، والكتابة عن توجّهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ، وآثارهما الباقية ، بعد أن فارقا الحياة والنّاس ، تشهد لهما بالإبداع والقدرة ، وتشهد لهما بأنهما صنعا مجدهما صنعاً ذاتياً ، لا يد للعوامل الخارجية فيه ، إلا ما هو ضروري وحتمي ، كما تقتضيه طبيعة كل عمران .

ظاهرة الأدب المكتوب بالفرنسيّة

يلاحظ القراء والباحثون والنقاد ، نموّ ظاهرة بدأت تبرز منذ سنوات ، في بلدان المغرب العربي (تونس ـ الجزائر ـ المغرب) هي ظاهرة الأدب المكتوب بالفرنسيّة ، كانت في البداية تتقدّم في استحياء ، وفي كثير من التردّد والتعثّر ، ولكنها ما عتّمت أن وسّعت حركتِها ، وأخذت تنشئ لها مجالا ، هنا وهناك ، وإزاء ظاهرة الصمت حولها ، وارتفاع الأصوات بنقدها وتهميشها ، فانها بدأت أخيرا ترفع لها شعارات برّاقة ، تثبت بها صحّة انتسابها إلى المجتمع الجديد ، وإلى الظروف التاريخيّة التي أنتجتها ، وإلى طبيعة العلاقات بين الشعوب ، حيث أصبح الحوار بين الثقافات ، سمة كبرى من سمات هذا العصر .

فقد أصدرت مجلة « فكر وفنّ » الألمانية (العدد 44ـ 1986) ملفّا عن الأدب في المغرب الأقصى ، شارك فيه العديد من الكتّاب المعروفين كعبد الله العروي ومحمد بنّيس وعابد الجابري وبن عبد العال واللعبي ، ولمّا كان مقال « عن الأدب المغربي المكتوب بالفرنسيّة » لعبد اللطيف

اللعبي ، يطرح بصراحة إشكاليّة هذا الأدب ، والأسباب التي تبرّر بروزه إلى جانب الأدب المكتوب بالعربيّة ، فقد رأيت أن أتوقف قليلا ، لأناقش بعض ما جاء فيه من وجوه الرأي ، لا أتفق معه فيها ، لأنها حافلة بصنوف من التناقض وبألوان من التقصير ، في تقييم الحركة الأدبيّة العربيّة الحديثة ، بل في هذا التصنيف العجيب ، لأدب مغربي مكتوب بالفرنسيّة ، وآخر مكتوب بالعربية ، كأن المغرب بلد لم تتحدّد له هوية بعد ، ولم ينبثق من رحم الحضارة العربية الإسلاميّة ، الذي كان دوماً ولا يزال عنصراً فاعلاً فيها ، تأصيلا وتجديدا وإبداعاً ، ومن ثمّة فلا بد أن نتساءل : إلى أيّ مدى تصحّ تسمية هذا الأدب بالمغربي ؟ إن المغرب كما نعرف ، كيان عربي طبيعة وأرضا ، حضارة وثقافة ، ولا وجه له آخر ، يعرف به شرقا أو غربا ، فاللّغة العربية إذن هي التي تصوّر ملامح إبداعاته ، وتعبّر بعمق عن دفين مشاعره وأحاسيسه ، وهي التي تنقل خطابه الفكري والأدبي إلى القريب والبعيد ، وهي العنصر الحاسم في تحديد هويّة هذا الأدب أو ذاك ، وتصنيفه إلى أدب عربي وآخر غير عربي ، ومعنى هذا أن الأدب المكتوب بالفرنسية غير عربي ، ولو كتبه عرب ، لهم نسبة واضحة بهذه الأرض العربية أو تلك ، ذلك لأنه ينبع من ثقافة مغايرة ، ومن تراث غير التراث العربي ، هو حلقة

من حلقات الأدب الفرنسي ، نشأ بعيداً أو قريبا ، ومثال الباركامو ـ الجزائري المولد ـ وألمبارممّي ـ التونسي المولد ـ وليوبولد سنغور ـ السينيغالي المولد ـ معروف ومشهور ، وسيضحك الفرنسيون كثيراً حين تناقشهم في ذلك ، وفي الحق أن هذا أمر مسلّم به في كلّ الآداب الكبرى ، ومنها الأدب العربي ، فقد أبدع فيه أناس من جنسيات وقوميات مختلفة ، شعراء وكتّابا ومؤرخين ، ومفسرين ومحدثين وفلاسفة ، كأبي نواس وبشار ومهيار الديلمي ، وابن المقفع وسيبويه ، وابن سينا والرازي والزّمخشري والبخاري ، وغير ذلك مما لا يحصى ولا يعدّ ، ومع ذلك ـ وطيلة كل العهود ـ لم يرتفع صوت ـ حسبما أعلم ـ يطالب باعادة تصنيف إنتاجهم المتنوع ، خارج الفكر والأدب واللغة العربية ، لأن القضيّة قضيّة اختيار بالأساس ، صحيح أن الظروف التاريخيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والشخصيّة ، تؤثر تأثيرها الخطير في عمليّة الاختيار ، قسرا وجبرا ومصالح أيضا ، ولكن القرارات الخطيرة ، تخضع دائما على مدى التاريخ ، لمثل هذا الامتحان الصعب .

تباهى عبد اللطيف اللعبي ـ في مقاله ـ بأن هذا الأدب أحدث تأثيرا واضحا في الأدب العربي المغربي « لقد سمح

هذا الأدب في آخر المطاف ، باخراج الأدب المغربي من حلقة الخصوصيّة الضيِّقة ، والدفع به نحو تلمّس إشكاليّة المعاصرة ومستلزمات الكونيّة ، ذلك لأن الكتابة بلغة أجنبيّة كاللغة الفرنسيّة ، التي تمّ بواسطتها تطوير هائل للإبداع الأدبي والتجديد الثقافي ، كانت تفرض على صاحبها بذل مجهود كيفيّ للارتقاء إلى المستوى المطلوب » ، وأنا لا أعرف كيف تمّ هذا التطور في الأدب المغربي ، بتأثير الأدب المكتوب بالفرنسيّة ، والحال أن المغرب ككل البلاد العربيّة الأخرى ، تنفتح انفتاحاً كبيراً منذ أجيال لألوان من الآداب الأجنبيّة ، أوروبيّة وأمريكية ولاتينية ، واشتراكية من هنا وهناك ، بل صينيّة ويابانيّة أيضا ، عن طريق الترجمة والدراسة والنقد ، ثمّ إن الجامعات العربية ، ومنها جامعات المغرب ، بها أقسام لمختلف الآداب واللغات ، وطلأبها يحسنون اللغات الأجنبيّة ، لهم قدرة على الاتصال المباشر بالآثار الإبداعية الجيدة ، ولحدّ الآن ، لم نسمع أن كاتبا مغربيّا واحداً من هؤلاء الذين يكتبون بالفرنسية تجاوز الكبار الذين أثّروا في آداب العصر ، وأحدثوا هذا التجديد العظيم في كل فنون الأدب ، حتى تصحّ تلك المقولة العجيبة !

أنا لا أنكر طرافة بعض الآثار المكتوبة في هذا الأدب ،

ولا أنكر ما يتوفّر عليه كاتبوها ، من موهبة وثقافة ، ولكنّي أرى دائما ، أن هذا يشبه الحرث في البحر كما قال يوما خالد محمد خالد ، فجماهيرنا العربية مشدودة إلى تراثها ، ولها قناعات لن تتخلّى عنها بسهولة ، وبالتّالي فلا انطلاق الاّ من البنية الداخليّة ، أي من داخل العمل الأدبي العربي نفسه ، وقد نبّه إلى شيء من هذا محمّد بنّيس ، وهو شاعر وجامعي مغربي معروف ، حين صرّح بجريدة الشرق الأوسط (1987/2/9) بعد أن ألقى كلمة بالعربية في جلسة مشتركة ، بين ناشرين فرنسيين ومغاربة : نعم قلتها رمزيًا ، فاللقاء ينعقد بالمغرب ، فيجب أن يكون بالعربية ، ولا نستطيع أن نختار شيئا آخر غير اللغة العربية ، فاللغة الفرنسيّة على كل حال ، لا نرفضها كلغة تفتّح ، ولكن أيضا حضور اللغة العربية شيء ضروري » .

وأنا أحب ان أضع قضيّة الأدب المكتوب بالفرنسيّة ، في إطارها الصحيح ، أي في ذلك الإطار الذي يشمل ظواهر أخرى تتجاوز الأدب إلى التركيبة العقليّة السائدة في كثير من أبناء شعبنا المغربي ، فقد بات واضحا أن الاستعمار الفرنسي لبلداننا المغربيّة ، حقق هدفاً مركزيًا فريداً في بابه ، عوّضه تقريباً ، جملة خسائره في الحرب والاقتصاد

والسياسة ، هو هذه العقليّة المعيّنة التي غرسها غرسا ، وركزها تركيزا ، في أنفس الكثير من الأفراد والجماعات ، عبر أجيال وخلال عقود من السنين ، نعرف يقينا خفيّ ملابساتها ، وما انطوت عليه من ألوان المكر والخديعة ، وضروب من التمـــدّن الزائف ، فانت تجدها في هذا المجال أو ذاك ، وأنت تقرأها في الصحيفة والمجلّة والكتاب ، وأنت تستمع إليها في محفل عام أو خاص ، مهما تنوّعت أساليب خطابها ، فانها دائما تسخر وتدين وترفض ، وتقرّر في وضوح لا شائبة فيه ، أن علّة تخلف العرب تكمن في هذا التراث الذي يعتزّون به ، وفي هذه اللغة التي لا يريدون أن يتحولّوا عنها ، وفي هذه العقيدة التي تكيّف نظرتهم إلى الحياة والوجود ، بل في حضارتهم نفسها ، التي ترسم معالم تفكيرهم وسلوكهم ، وقوام حياتهم جميعها ، وأنت تسأل ببراءة كما تساءل القديم : وهل يأبق الإنسان من أرض له وسماء ؟ ثمّ كيف تتأبّى النهضة عن مجتمع ، له أصول ثوابت ، وتجارب عميقة في صنع العلم والحضارة والتمدّن ؟ وأنا لا أحبّ أن أكرر لك ما يتقولّونه من جواب ، وما يقدّمونه من تحليل وحديث ، فهو منشور معروف ، وإنما أريد أن أعود بذاكرتك إلى بداية البداية ، حين رسمت خطة التغريب الشامل ، تمهيداً لتحويل البنى الأساسية

للمجتمعات المغربية ، وتفريغها من مضمونها العربي الإسلامي ، ثمّ إدماجها نهائيا في الكيان الفرنسي ، وتجلى ذلك بوضوح في السياسة التعليميّة بنوع خاص ، فقد تركّزت على تعتيم الصورة العربية ، وتقديمها باهته متناقضة بدويّة جافية ، دون إبداع أو حيويّة ، ومن هنا جاء الحرص على دحر اللغة العربية ، إلى درجة أن النحو العربي كان يدرس في المعاهد الثانوية بالفرنسية ، أما الصورة الفرنسيّة فكانت تقدّم زاهية ، حافلة بألوان المجد والتحضّر ، تعرب كل مفرداتها عن أنها الموئل الوحيد للإنقاذ الإنساني ، وأنها الفرصة الأخيرة التي تستطيع هذه الشعوب المتخلّفة ، أن تغتنمها لتخرج من سبات القرون وتفكّ عنها تلك القيود الثقال ، التي ربطتها إلى آراء وأفكار وعادات وتقاليد ، لم تعد تتماشى وروح المعاصرة .

وبالطبع فقد أثمرت هذه السياسة ، وقدّمت نتائجها في وقت قياسي إذ عاد خريجو العلوم الإنسانية من فرنسا ، يحمل الكثير منهم نمطا من التفكير وأسلوبا من الفهم ، يمتنع معه أي حوار أو جدل ، فهو الإدانة لكل ما هو عربي ، وهو الرفض لكل ما أنتجته العقليّة العربية على مدى القرون ، واستطاعوا بهذه العقلية ، أن يجهضوا كل محاولات

الإصلاح والتحديث ، التي قامت بالأرض المغربيّة ، إذ هم محكومون بعقليّة ليس أمامها إلا بديل واحد هو النموذج الفرنسي ، أمّا ما عداه فليس إلا القحط واليباب .

يحدث هذا وحولنا في الشرق والغرب ، جهود تبذل لإحياء حضارات انقرضت كليًا أو جزئيًا ، في إفريقيا وآسيا وأوروبا نفسها ، فقد بعثت لجان باليونسكو لجمع تراث الغجريّين والهنود الحمر ، وبتنا نطالع في منشورات اليونسكو وغيرها ، نماذج من إبداع هذين الشعبين البائسين ، وهي تنطق بما يتوفّران عليه من حسّ إنساني رفيع ، وصمود إرادي نبيل ، رغم كل صنوف القهر والعدوان ، وهناك الآن بافريقيا السوداء ، حركة ناهضة لتأصيل اللغات المحليّة والإبداع فيها ، بشتّى فنون الأدب ، ومثال إسرائيل هنا ، ينبغي التركيز عليه قبل غيره من الأمثال ، إذ بادر الإسرائيليون فور تركيز دولتهم بتعميم لغتهم العبريّة ، وجعلها اللغة الأولى في التعليم والإدارة والحياة العامّة ، وأخذ أدباؤهم يكتبون بها آثارهم الأدبية ، علما بان هذه اللغة كانت شبه ميتة ، لا أثر لها إلا في المعابد والصلوات ، وتألف نتيجة لذلك ما أصبح يدعي بالأدب الإسرائيلي .

وبالطبع فان إدانة تلك العقلية الغريبة عنّا ، ومجابهتها

والتصدّي لها ، لا يعني أن ننساق وراء الشعارات الجوفاء ، والقول بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وأن الصواب لا يمتلكه إلاّ قدماؤنا ، فليس الأمر على هذا الوجه ، ولم يقل به عاقل جادّ قط ، وإنما الهدف أن تبنى النهضة التي ننشد انطلاقا من واقعنا الحضاري ، الحافل بكل ما هو جميل وعزيز ، والذي مازال قادرا على العطاء ، وله صلة بهذا العصر ، يدركها الباحث المخلص ، ويقدّرها الدارس المنهجي .

البعد المغربي للثقافة

يبدو أن شعوبنا المغربية ، قد أخذت تعي بجدّ ، دروس ماضيها البعيد والقريب ، وأنها استطاعت أن تتوفّق في النهاية ، إلى أن مصالحها الحقيقيّة يجب أن تكون فوق كل اعتبار آخر ، كهذا الزهو الأجوف الذي كرّس القطيعة بينها زمنا طويلا ، أو ذاك الفهم القاصر لطبيعة العلاقة بين الدول ، الذي لا يميز بين أخ شقيق ، تماسكت بيننا وبينه الأرض والعادة والتاريخ ، وبين أجنبي غريب ، لم نعهده إلاّ غازياً مهيمناً ومستغلاً ، بل أن كل المؤشرات لتنبئ أننا إزاء مرحلة جديدة ، تذوب فيها الفوارق المصطنعة بين شعوب المغرب ، ويتحقق فيها حلم الأجيال المتعاقبة ، ويقول فيها التاريخ كلمته الفاصلة ، فاننا شعب واحد ، وإننا جزء من أمة كبرى ، آن لها ان تلتئم وتتوحّد ، لتضطلع بدورها الريادي ، إلى جانب قوى التحرّر والعدالة والسلم .

وبالطبع فان القوى السياسيّة والاجتماعيّة ، ستكون صاحبة الدور الأول ، الذي ينهض بأعباء المرحلة الجديد ، ويخطّط لها الحدود التي ينبغي أن تصل اليها ، ولكن

المؤكد ـ وهذا ما تعلمناه من التاريخ ـ أن هذا الدور السياسي والاجتماعي سيظل محتاجاً شديد الاحتياج ، إلى دعم قوى أخرى ، في مقدمتها أصحاب الفكر والثقافة ، لذلك فان المفكرين والمثقفين المبدعين ، مدعوون ـ كما لم يكن في أي وقت آخر ـ إلى النهوض بأعباء رسالتهم ، وإلى تنفيذ المهام التي تتطلبها مرحلة البناء الجديد ، خدمة للجماهير العريضة من جهة ، وخدمة لوحدة الثقافة العربيّة ، من جهة أخرى .

ولعلّ إحدى المهام الرئيسيّة الجديرة بالمعالجة ، هي تجاوز هذا التفكير الضيق ، الذي انحشر فيه الكتاب والمفكرون ، ورسفوا في قيود إقليميتّه زمنا طويلا ، فهم يكتبون وكأن العالم انتهي عند بوابه العبور هذه أو تلك ورغم أن تاريخ المغاربة واحد ، ومسيرتهم الحضاريّة واحدة ، إلاّ أنك تجد من يخصص الصفحات الطوال والقصار ليحدّثك عن مراحل في التاريخ والحضارة ، تميّز بها هذا القطر أو ذاك ، أو أنه أنجب هذا المفكر أو ذاك ، كأنهم يريدون أن يقولوا لك ـ وقد قالوا ـ إن كل قطر من أقطارهم ، يمثل أمة ذات قوميّة خاصة وحضارة معيّنة ، لا تقبل المشاركة ، والاتحاد ، ومن هنا فانه يتعيّن على مثقفينا أن يتداعوا إلى

دراسة الوضع الثقافي ، قضاياه ومشاكله ، على نحـو شمولي ، يزيل عوائق وحواجز ، وضعت قصداً وعمداً ، أو أملتها ظروف حرجة ، لم يكن لأحد على نفسه فيهـــا سلطان .

إن الملتقيات والندوات والمؤتمرات ، ضروريّة وهامة وأساسيّة ولكني أعتقد أن إعادة صياغة الجمعيات الثقافية والأدبية ، كاتحادات الكتاب مثلا ، تمثل أهمية من نوع خاص ، ذلك لأنها تمثل كمّا وكيفا من المثقفين المبدعين ، يصعب أن يلتقي على صعيد آخر ، فرغم كثرة المثقفين خارج هذه الاتحادات ، إلاّ أنها كثرة غير منظمة ، تجمعها المناسبة العابرة وتفرقها أيضا ، والصياغة الجيدة التي أدعو اليها ، لا تتمثّل في حلّ هيئات هذه الاتحادات ، وإنما أولا وأساسا بتعديل بند من بنود قوانينها ، يتمكّن بمقتضاه كل كاتب مغربي وعربي ، من الإنخراط فيها ، هكذا مباشرة ، تمهيداً لقيام اتحاد عام ، لا يمثل الهيئات كما هو واقـــع « اتحاد الأدباء العرب » ، وانما اتحاداً يمثل قولا وفعلا كل المتنسبين اليه ، يحضرون مؤتمراته وملتقياته ، وينتخبون انتخاباً مباشراً هيئته التنفيذيّة ، على النحو الذي تشكّل به إتحاد المحامين العرب .

والذي اعتقده من وجه آخر ، أن السبب المركزي الذي أقعد اتحاد الكتاب في تونس ، عن أداء دوره كما ينبغي أن يكون ، إنما يكمن في هشاشة بنيته التكوينيّة ، التي جعلته يتأرجح بين الاستقلاليّة والإنتماء ، وهذا ما تأكّد يوماً بعد يوم ، مما أدّى به إلى العجز عن إصدار مجلة تنطق باسمه ، رغم المحاولات المتكررة منذ تأسيسه إلى اليوم ، فضلا عن الدعوة إلى ملتقيات وندوات ، عربيّة وغير عربيّة ، أو الإقدام على إصدار منشورات أعضائه ، وضعيّة اتحاد الكتّاب التونسيين ليست بدعاً بين اتحادات الكتّاب العرب الأخرى ، إلا أن أسباب فشلها تختلف ، ولا حل في نظري ، إلاّ باعادة صيغ تأسيسها ، وتعديل بنودها ، ومن ثمّة السماح لكل حاملي القلم بالعمل فيها ، عندها فقط سنجد أوضاع الكتّاب قد تغيّرت ، وأوضاع العمل الفكري والثقافي قد اتسعت أمامها المجالات ، وعندها أيضا سنجد التفكير الجادّ في إقامة استراتيجيّة ثقافيّة عربيّة ، حقيقة لا مجازاً ، ترسم وتخطط وتنفّذ في آن ، لا مجرد توصيات لا تلبث أن تضيع وتزول .

والواقع أن تونس ، منذ السابع من نوفمبر (1987) ، بدأت تشهد حركة واسعة ومكثّفة على الصعيدين المغربي

والعربي ، لإبراز الدور الإيجابي الذي يمكن أن تنهض به ، وسط هذه الأعاصير السوداء ، وأنواع التحدي التي تجابه الأمة العربية مشرقا ومغربا ، وهو أمر طبيعي جداً ، لأن تونس لها من مؤهلات الطبيعة والحضارة ، والقدم الراسخة في تاريخها العربي الإسلامي ، ما يجعلها تتحمّل مسؤوليتها كاملة ، وتباشر مهامها بكل اقتدار وقوّة ، لإرساء قواعد العمل الوحدوي الجاد ، وتقرير حقيقة واقعيّة لا سبيل إلى الطّعن فيها ، وهي أن الكيانات الضعيفة لا تستطيع الثبات بحال ، أمام قوى استراتيجيّة جبّارة ، تمتلك من السلطة والنفوذ والقوة ، ما يفوق الوصف والخيال ، وليس من هدفي هنا أن استطرد إلى حديث طويل عن الوحدة الموعودة ، ومشاريعها المختلفة ، التي يعرضها هذا الطرف أو ذاك ، وأي العناصر التي ينبغي البدء بها قبل غيرها ، وإنما هدفي التأكيد على أهمية الوحدة الثقافيّة ، لما تقدمه من ممكنات الصلة والارتباط بين الأفراد والشعوب ، ولما تحققه من تجانس وتقارب في الفكر والرأي والمذهب ، ذلك أن الإسراع إلى تأصيل قواعدها ، وتعميم مفرداتها في كل هذه البيئات المترامية ، لا يدعّم الاختيار السياسي والاقتصادي وحسب ، وإنما يثبته ويغرس جذوره بعيداً ، ويحول بينه وبين أي انتكاس أو تراجع ، لأن

الجماهير تصبح معنية بالدرجة الأولى ، ومن حقها الشرعي أن تدافع عن مكاسبها ، بل أن تقف سداً منيعا أمام كل مفاجأة أو انحراف ، يوحي به الرأي المتسرّع ، أو تمليه إرادة ماكرة ، وما أكثرها في عالمنا المتقلّب .

إن التأمل في الواقع الثقافي المغربي (لا استعمل المغاربي لخروجها عن القياس) يحتّم البدء الفوري بتدارك نواقصه الكثيرة ، وسدّ الثغرات الواسعة التي تتبدّى هنا وهناك ، يجب أن ترفع هذه الحواجز السميكة ، التي ضربت بغير وجه حقّ ، في وجوه الكتاب والصحيفة والمجلّة وكل وسائل الاتصال الأخرى ، التلفزيّة منها والإذاعيّة ، وما شئت من وسائل الاتصال الأخرى ، فانه لمؤسف جداً ، أن يواكب المثقف الحركة الثقافيّة الأوروبيّة ، الفرنسيّة بخاصة ، كبيرها وصغيرها ، وأن يكون على إلمام تامّ بحقولها المعرفيّة ، ومبتكرات فنونها بما في ذلك الموضة وأحاديث اللهو والتسلية ، وأن يظل غائبا عمّا يجري في أقطاره المغربية الأخرى ، وبالتأكيد فان فيها الجيد الكثير الذي ينبغي الاطلاع عليه ، وفيها ما هو قمين بالنظر والنقاش ، بل فيها مايدعو إلى اتخاذ موقف ، وقبل هذا وبعده ، فالتواصل الثقافي ضروري ، وهو أساسي في وضع أية نظرية

فكريّة أو أدبيّة أو ثقافيّة .

وبالطبع فان الأمر يبدو في البداية صعبا ، ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ ، وباعتقادي أن المعوّل عليه ، ليس المؤسسات الرسميّة لما جبلت عليه من بيرقراطيّة ، وانتظار الأوامر التي يحتاج نزولها إلى وقت ، طويل أو قصير ، وإنما مبدعو الثقافة أنفسهم ، بما يتوفّر لديهم من إمكانات وقدرة على التحرك ، فليؤسّسوا المجلات والصحف الشاملة ، مغربيًا وعربيًا ، وليركزوا الجمعيات التي تحقق الأهداف التي يريدون وليناداوا إلى عقد اللقاءات الموسّعة والمضيّقة ، يطرحون فيها القضايا الهامة ، وليخرجوا من كل ذلك بالحلول الايجابيّة التي تختصر المسافة البعيدة ، وتركّز الإنسان المغربي في أصله وتراثه ، وفي حضارته العربيّة ، وفي عصره الجديد كذلك .

غارودي و « حوار الحضارات »

إنها شهادة على تجربة كونية ، تشمل الكرة الأرضية بأسرها ، شهادة فرح بالغنى الإنساني الذي حملته إليّ ثقافة لا غربيّة وأناس من آسيا ، ومن الأصقاع الإسلامية ، ومن إفريقيا ، ومن أمريكا اللاتينية ، إنها شهادة تتناول ما بحثت عنه ، وما أعتقد أنني اكتشفته في كل ثقافة من هذه الثقافات ، لدى كل إنسان من هؤلاء الناس ، شهادة بالطبع الإلهي [1]

هذه الشهادة الفكرية المهمّة ، لم يستطع صاحبها ـ رجاء غارودي ـ أن يدلي بها إلينا وللناس جميعا ، بمثل هذه الحرارة الرومانسية الآملة ، ويفصلها تفصيلا في كتابه الجديد « حوار الحضارات » والذي وصل الينا في نسخته العربية منذ مدّة ، إلا بعد ألوان من معاناة الفكر والواقع ، وضروب من البحث والتحصيل والمقابلة بين الآراء والعقائد

---

(1) رجاء غارودي ، حوار الحضارات ، ص : 10 ، ترجمة الدكتور عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت ـ باريس ، ط 1 سنة 1978 .

والنظريات ، والممارسة الإيجابية للعمل السياسي نظريًا وتطبيقيًا ، فقد درس الفلسفة ، ومارس النقد الأدبي والإيديولوجي ، وناضل في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي ، وتقلّد فيه مسؤوليات عالية ، في لجنته المركزية ومكتبه السياسي ، وتمكّن خلال ذلك من أن يصدر مؤلفات متعددة ، قرأها البعض فأعجب بها أيمّا إعجاب ، وقرأها البعض الآخر ، فرضي عنها رضًى قليلا أو كثيرا ، وتناولها صنف ثالث نهاجمها هجوماً عنيفاً ، لا قصد فيه ولا اعتدال ، وحدثت أحداث ، منذ سنوات ، بفرنسا وغير فرنسا ، فغيّرت عميقا من خطه الفكري والمنهجي ، وبدّلت من وضعيته السياسيّة ، فانفكّ ارتباطه بالحزب الشيوعي ، أو قل إنه أطرد منه طـردا عنيفاً ، تغيرت به العلاقة من الالتزام الشديد بالخط الماركسي اللينيني إلى نوع من المجابهة النقديّة التي تتبع المآخذ فتشهر بها ، وتتسقّط الانحراف التطبيقي وغير التطبيقي ، فتنتقده نقداً لاذعاً ، لا تردّد فيه ولا إحجام .

كانت البداية أحداث ماي الشهيرة بفرنسا ، حينما ثار الطلبة على مؤسسات التعليم الرسميّة ، واعتبروها عقيمة لا تفي بحاجياتهم الفكريّة والعمليّة ، التي تتطلبها حركة المجتمع الجديدة ، وحينما تمرّدوا على أطروحات الفكر

الليبرالي والفكر الماركسي ، ممثلة بأحزاب اليمين واليسار ، تلهثُ بهم مقولات ـ هربرت ماركوز ـ الفيلسوف الألماني الأصل ، الأمريكي الجنسيّة ، والتي يمكن إجمالها فيما يلي : « إن الأحزاب الشيوعية قد أفلست ، والبورجوازية قد احتوت الطبقة العاملة ، التي لم تعد ثورية ، والشبيبة هي في الجامعات خاصة قوة جديدة ، مترعة بالإمكانات الثورية ، بحيث يجب أن تنظم صفوفها من أجل النضال العنيف [2] ، وتصدّى الحزب الشيوعي لهذه الحركة ، فأدانها أولاً ثم قاومها بعد ذلك ، ولكن ـ غارودي ـ اعترض على ذلك ، وقدّم تحليلا بديلاً للأحداث الطالبيّة ، اعتبر بموجبه أن الطلاب بحاجة إلى الدعم والتأييد ، لا إلى المقاطعة والهجوم [3] ثم جدت أحداث أخرى ، جعلت القطيعة بين الرجل وحزبه أمراً لا مناص منه ، فقد هاجمت قوات عسكرية سوفياتية بلاد تشيكوسلوفاكيا. ، وغيرت من نظامها القائم ، واستبدلته بآخر ، موال لها كلّ الموالاة ، وانبرى ـ غارودي ـ يندّد بالأسلوب الفاشي الجديد ، وبالخط

(2) رجاء غارودي الحقيقة كلها ، ص : 10 ، ترجمة الدكتور فؤاد أيّوب ، دار دمشق ، دون تاريخ

(3) نفس المصدر ، ص 20

الفكري الستاليني الرجعي جملة ، ثم توسع نقده فدعا إلى أكثر من نموذج واحد للاشتراكيّة ،وأن الظروف الموضوعيّة لكل بلد هي التي تحدّد الأسلوب الاشتراكي الملائم ، فليست الاشتراكية نقلا ميكانيكيًا ، لنظرية معيّنة ولو كانت الاشتراكيّة العلميّة ، وليست مراعاة لتطبيق معيّن لها ، ولو كان ذلك قد تمّ في الاتحاد السوفياتي ، أو في الصين ، وإنما هي تجربة ينبغي أن تحتشد لها كثير من العوامل البشريّة والاقتصاديّة ، التي قد تتوفّر هنا ولا تتوفّر هناك [4] وهكذا وقع طرد الرجل .

و « حوار الحضارات » الذي نحاول أن نتعرف إلى مضمونه الفكري ، وإلى جوانب الطّرافة التي قد تكون كامنة فيه ، يخضع خضوعا واضحاً للمرحلة الجديدة ، التي أخذ بها ـ غارودي ـ منذ انفصاله عن العمل المقيّد ، والتي أنجز خلالها أعمالا كثيرة ، بشرت بمنظوره الجديد ، في الاشتراكيّة ، وغير الاشتراكيّة ، بل إن هذا الكتاب ليعكس بدون مواربة ، جملة الأفكار المتفرقة السابقة ، ويقدمها إلينا متماسكة ، ترتدّ فيها الأعجاز على الصدور كما يقـــول

---

(4) انظر كل التفاصيل بنفس المصدر السّابق .

بلغاؤنا ، فاذا كانت الماركسيّة أدانت النظام الرأسمالي البورجوازي ، واعتبرت الخلاص الإنساني رهيناً بتحقيق الاشتراكيّة ، فان رجاء غارودي ، يدين الحضارة الغربية كلها ، ليبراليّة كانت أو شيوعيّة ، ويعتبرها العارض الطارئ الذي انحرف بمسيرة الحضارات الانسانيّة ، وأوقعت كل الشعوب ، في هذه المتاهة الفكريّة والاجتماعيّة التي تتخبّط فيها الآن .

ذلك أن الغرب بمقتضى استقراء التاريخ ، انبثاق موضوعي لحضارات قديمة موغلة في القدم ، وليس صحيحاً البتّة ، أنه نتاج لحضارة اليونان واللاّتين ، وبالتّالي أنه غير مدين ـ فيما وصل اليه الآن ـ لأية حضارات آخرى ، لأن الحضارة اليونانيّة والرومانيّة ، امتداد بمعنى من المعاني لحضارات مصر وبابل وآشور وفارس والجزيرة العربية ، وقد وقع الغرب في مغالطة كبري ، حينما تصور أنه يبني عالما جديداً ، لا أثر لغيره فيه ، بل يمكن القول أن منظور الغرب هذا ، قد جرّ عليه الكوارث وأوقعه في عبوديّة جديدة ، لا سبيل الى الانعتاق منها ، إلا بالرجوع الى الأصول الحضاريّة التي تغذّت منها حركاته في كافة مجالاتها ، لقد نجم عن انفصام الغرب عن منابعه الشرقيّة إفقار الإنسان ، وغدا

التباين قاسياً بالنسبة للرؤية الشرقية عن العالم ، وهي تؤلف بين حبّ الطبيعة وبين التقوى تجاه الناس ، وترفض الفرديّة الوهميّة في مسعى انصهارها مع الطبيعة [5] ، ليس هذا فحسب فان المؤلف يؤمن بأن انحسار المدّ العربي الإسلامي ، عن الغرب الأوروبي ، أدّى إلى تخلّف اليقظة الأوروبيّة قروناً عديدة ، لنرجع إلى التاريخ ، لماذا هبّ هذا الإعصار القادم من الشّرق ، وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى ، من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي ؟ إن العامل الحاسم هو أنّ « العربي » قد جلب معه أشكالاً أعلى في مجالات التنظيم الاجتماعي وحتى الاقتصادي ، ولماذا نجده يحظى بقبول الجماهير ، في عالم يقرّ نظام الرقّ ، وهو في حالة تفسّخ تام » [6] ... « لقد استمرّ حديث الغرب مع ذاته زمنا كافيا ، وقد حاول توجيه جميع الحضارات بحسب منظوره الخاص ، فاذا صدّقناه قلنا إنه لم يوجد قبله سوى جلجة الابتدائيين ، ولن يوجد بعده إلا انحراف المنحطّين . كما لو أن المسار القيّم الوحيد ، هو مسار الغرب » [7] .

---

(5) حوار الحضارات ، ص : 23

(6) نفس المصدر ، ص : 101

(7) نفس المصدر ، ص : 125

كل ذلك يؤدّي إلى الدعوة إلى مشروع أمل حضاري جديد ، ويسهب ـ غارودي ـ القول في ماهيته وعناصره ، لأن المشكلة الأساسيّة في نظره « هي مشكلة إحداث تغيير جذري في الأنموذج الغربي لعلاقتنا مع الطبيعة ، بفضل حكمة الصين وإفريقيّة والهند والإسلام ، مشكلة إقامة توازن في مفهومنا ذي النزعة التقنيّة ، بالإفادة من تجربة حيّة ، شعريّة وصوفيّة ، هي تجربة اتصالنا ومشاركتنا في طبيعة لا نملكها بل تملكنا ، وحوار الحضارات هذا ، ليؤلف مرحلة لازبة على الصعيد الاقتصادي ، في التساؤل الانتقادي وفي التغيير الجذري لطراز تنميتنا ، وفي اكتشاف غائيات أخرى للتنمية ، وفي الوصول إلى تعريف آخر لمعنى التطور والنماء »[8] .

إنها شهادة تأتي في إبانها ، في هذا الوقت الذي يشتدّ فيه الغزو الثقافي الاستعماري الجديد ، وتتجنّد له الأقلام من هنا وهناك ، داعية إلى رفض التراث العربي والإسلامي ، ومحاربة الحضارة الإسلاميّة في أخصّ خصائصها الجوهريّة ، ولعل هذا الكتاب بتحليله الرائع ، وعمقه الفكري ، وغزارة

---

(8) نفس المصدر ، ص : 220

مادته العمليّة ، يقدم الدّرس الواجب ، الذي يحتاج إليه المثقف المنصف ، والدارس الجادّ ، ويحتاج إليه كل من أراد الوصول إلى الحقيقة .

محمد اركون والتجديد الإسلامي !!

كثر الولوع منذ سنوات ، بين مثقفي المغرب العربي ، بلقب « المفكر » يسند لهذا الرجل أو ذاك ، بمناسبة جائزة أجنبيّة ينالها ، أو إثر صدور كتاب له أو ثلاثة ، أو عند توقع منزلة ، يرتقي اليها في بلده الصغير ، أو في بلاد الله الواسعة ، فاذا أقام بأوروبا ، واصطنع إحدى لغاتها ، يدرس بها حياة العرب وتراثهم ، كاشفا ألوان التخلف العميق الذي يضطربون فيه ، ناعياً عجزهم الفطري ، وقصورهم الجبليّ ، فهو المفكر الكبير ، الذي تنبغي الإشادة به في كل حين ، والحرص على سماع آرائه وأحاديثه ، والدعوة إليها من كل سبيل !! .

فقد قرأت بجريدة « الرأي » الأسبوعيّة التونسيّة ، في عددين متوالين (13 ، 20 فيفري 1987) حوارا مطولا ، أجراه زياد كريشان وحسن بن عثمان ، مع محمد أركون ، المدرّس بالسوربون ، وصاحب الاهتمامات بالتراث العربي الإسلامي نقداً ومراجعة ودرساً ، كان حذراً كأنه يخشى ردّ فعل عنيف ، ولكنه ما لبث أن استجاب لإغراءات الأسئلة ،

فانطلق يشرح أطروحته الأساسيّة التي أدار عليها كل اهتماماته في الكتابة والتّدريس ، وهي بإيجاز تدعو « إلى موقف فكري ، يغاير المواقف التي تعوّدناها ، في كتابة تاريخ الفكر عامة ، لا الفكر الإسلامي فحسب ... أنا أدعو إذن إلى منهاج مقارن في تاريخ الفكر ، هذا المنهج المقارن لم يوجد ولم نتعوّده ، لا عند الغرب ولا عندنا » فالرجل كما ترى غير عادي ، يمتلك منهجاً فذّاً ، سيغيّر به معطيات البحث التاريخي المقارن ، رأسا على عقب كما يقولون ، وبالطبع فان من حقّه أن يقول ذلك ، وأن يقول أكثر إذا شاء ولكن أمر مناقشته متاح ووارد كذلك ، بل أصبح متأكّدا وواجبا ، خاصّة حين أخذ يطبّق هذا المنهج ، على وقائع محدّدة في التاريخ العربي والإسلامي ، فقد حلّل أسباب انهيار الامبراطوريّة الإسلاميّة (الخلافة) وردّها إلى تنافر أجناسها المتعدّدة ، « بأصالتها الثقافيّة وعقائدها ولغاتها ، ولم تنصهر كما تنصهر اليوم العناصر في الأمة الحديثـــــة » وأيضا إلى عجز الفكر الإسلامي عن التنظير الواقعي حتّى تبرز الخصائص الحقيقيّة للدولة » بيد أن الذي نعرفه ، يقضي بغير هذا ، فقد تعرّبت تلك الأجناس ، فكراً ولساناً ، والتحمت التحاماً قويّاً ، يدل عليه هذا التراث المشترك ، كمّا وكيفا ، بالعربية وغير العربية ، ويدلّ عليه من وجـه

آخر ، قيام الدولة الواحدة ، مرّة بعد أخرى ، دولة الخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين والفاطميين ، ثمّ الخلافة العثمانيّة ، والتي نعرف عن يقين ، أنها لم تسقط إلا تحت ضربات الحركة الاستعمارية الأوروبية الجديدة ، التي سعت بكل جهد لتمزيق أوصال الدولة الواحدة بأنواع من الدسائس والمكر ، وأنواع من العمل العسكري الشرس ، تهيّجه عواطف صليبيّة حاقدة وأطماع اقتصاديّة واستراتيجيّة ، نشاهد اليوم نتائجها بكل وضوح ، في هذا الإزدهار العظيم الذي يعمّ كل أقطار أوروبا ، وفي هذا البؤس الشديد الذي يعمّ كل الأقطار الإسلاميّة ، فالعلّة الأساس في هذا التمزّق الإسلامي ، وفي هذا التخلف المقيم ، اقتصاداً واجتماعا ، إنما مرجعه الصراع على الثروات الظاهرة والباطنة ، وإلى هذه الأسواق المترامية الأطراف ، وفنون أخرى من الاستغلال لا تخطر على بال ، هناك أسباب داخليّة بالطبع ، مكّنت الحركة الاستعماريّة من تحقيق أهدافها ، ولكنّها تبقى دائما - بنظري - أسباباً ثانويّة ، وهذا ما أدركه قادة الفكر السياسي والاجتماعي ، حين نظّروا لمواجهة الوضع الجديد ، لكي نبني المجتمع المنهار ، والأمة المتداعية ، لا بدّ من طرد المستعمرين أولاً ، ومن أجل هذا بدأنا نشاهد اليوم ، أطروحات اقتصاديّة واجتماعيّة جديدة ، ومحاولات شتّى

لتحديث المجتمع ، مازالت في البداية لا محالة ، ولكن انطلاقتها ليست محلّ جدال ، أما قضيّة « التنظير الواقعي للدولة الإسلاميّة » ، وغيابها في الفكر الإسلامي ، فأمر يدعو إلى الاستغراب حقًا ، من أستاذ جامعي ، يدّعي التخصّص في الإسلاميات ، هو ذكر « الأحكام السلطانيّة » للماوردي ، ولكنه نسي ـ أو لم يعرف ـ الكمّ الهائل من النصوص الكلاميّة والفقهيّة والتاريخيّة ، التي حرصت على استنباط المفاهيم ، التي يجب أن تكون عليها الدولة ، قضاء وسياسة واقتصاداً وإدارة ، وقد بلغت هذه النصوص قمة تنظيرها في مقدمة ابن خلدون ، كما نعرف جميعاً .

يطرح محمد أركون ، في حواره هذا ، قضية أخرى ، أحسب أنها جوهر تفكيره في المراجعة الإسلاميّة التي يدعو إليها ، يمهّد لها بالتطور الذي حدث في أوروبا ، وسيادة أفكار حديثة ، نتيجة لحركة الاصلاح التي قادها ـ مارتن لوثر ـ حين « طالب بحريّة العقل ، أن ينظر في النصوص المقدّسة ، نظراً حراً ، دون أن تفرض عليه الكنيسة قيودا ، طالب بحريّة التفكير ، بحريّة التدبّر وبحرية الاتصال الشخصي بالكتب المنزّلة ، هذا موقف حديث » أما بالنسبة للنص القرآني ، فقد بقي بعيداً عن كل مقاربة ، وهو يدين

السياسيين والقضاة ، الذين حاكموا شخصا لأنه قرأ قراءة » لم يحصل حولها الإجماع » ، وما الذي يثير في هذا ، هل نسمح للعابثين أن يعبثوا وللمهرطقين أن يهرطقوا ، ولهذا وذاك ان يفعل ما يريد لقد جمع النص القرآني ، بمعرفة كبار الصحابة ، في عهد عمر وعثمان ، ووقع الإجماع على أنه النص الأصلي والحقيقي الذي أنزل على محمد ، ودوّن وبعث إلى كل الاقطار ، ولو حدث شيء غير دقيق ، لكان الاختلاف حوله أكبر من الاختلاف على الإمامة ، ولبلغتنا أشياء أخرى ، هي قمينة بأن تتداول في كل عصر وفي هذا العصر بالذات ، الذي صار يسمح بالحديث في الخطير وغير الخطير وكما هو واضح ، فان محمد أركون يعتبر أن مفتاح الحداثة ينطلق من معالجة النص القرآني بحريّة ، كتلك الحرية التي عولجت بها الأناجيل والتوراة ، ومن ثمّة تأسيس فكر علماني جديد ، له قيمه الخاصة به ، وأطروحاته التي تلائم تطور المجتمعات ، وتقدم العلوم والحضارة ، بعيدا عن ذلك السيف القرآني ، الذي نشأت حوله حضارة كبرى ، استمرت إلى الآن ، وأنا لا أحب أن أستعمل كلمات ، تعبّر عن ضيق بهذا التفكير ، وإنما أشير إلى المغالطة التي وقع فيها ، إذ ليس صحيحاً إن الإسلام ، قرآنا وسنة ، وتاريخا ، يرفض

الحداثة والتطور ، أولا يهتمّ بما ينبغي أن تكون عليه المجتمعات ، من تقدم وتطور وتجديد ، ولقد عرف العبّاسيون ـ مثلا ـ حركة هائلة من الحوار والجدل والخصام ، حول كل القضايا اللاهوتية ، وانتهوا إلى ما نعرف جميعاً ، من تأكيد أشياء ، وترك أخرى ، تعالجها الأجيال ، بتصوراتها وطرق تفكيرها الخاصة والعامة ، وإني لآخذ على محمد أركون ، هذا التهويل الذي صوّر به اضطهاد الإسلام للمفكرين ، حتى غدت صورة التاريخ قاتمة ، بل سوداء ، لا أمل يمكن ان ينبثق منها ، لعلّ أستاذ السربون ، يحسب أنه بذلك يلفت الانظار ، وأنه الجريئ الوحيد ، الذي يفتح الدرب أمام جحافل الاستغراب والاستلاب !!

فقد روى لي الصديق العفيف الأخضر ، الكاتب التقدّمي المعروف ، أنه التقي في فرنسا بمستشرق مشهور ، فأخبره انه أنجز العمل الذي وقف عليه جهده ، وهو إعادة ترتيب السّور والآيات القرآنية ، حسب تواريخ نزولها ، وحسب موضوعاتها في هذه السورة أو تلك ، على خلاف ما هو قائم متداول في المصاحف ، ومتواتر في الرواية ، سنداً عن سند ، إلى صاحب الشريعة الأصلي ، منذ أكثر من أربعة عشـر قرنا ، فلمّا قال له : إنك ستنشر هذا العمل بالطبع ؟ أجاب :

أن هذا صعب جداً ، ولكنّي سأجد من أصدقائي أو تلاميذي ، من ينهض بهذا العبء ، فأنا أجنبيّ دائما ، رغم طبيعة أعمالي في شتّى ميادين البحث العربي والإسلامي ، تذكرت هذه الواقعة ، وأنا أعيد قراءة حوار محمد أركون ، الذي تجاوز فيه عمل ذلك المستشرق التوثيقي ، رغم مكره الذي لا يخفى ، طارحاً آراء تضطرب من حيث أتيتها ، فالقرآن عنده « خطاب لغوي » وكلّ التفاسير التي لم نزل « نتقيّد بها ونعتمد عليها ، انشئت وفكّر فيها ، في إطار الفضاء المعرفي للقرون الوسطى .. هناك أفكار ومواقف فكريّة ، ما كان يمكن التفكير فيها في القرون الوسطى ، فهي خفيّة غير مدركة ، ظهرت وبرزت بعد تلك الفترة ، وببروز هذه المواقف الجديدة ، التي نصفها كمؤرخين بمرحلة الحداثة ، نجد أن الفكر الإسلامي لم يشارك في إنتاجها » ، والذي يبدو من هذا الكلام أن صاحبه ، لا يلمّ إلماما واضحاً بالقضيّة التي يطرحها ، فحركة التفسير لم تتجمّد عند الطبري والرازي ومن إليهما من المفسّرين ، وإنما استمرت صعدا ، جيلا بعد جيل ، الى أيامنا هذه ، فالناس يتداولون تفاسير أبو الأعلى المودودي والشيخ ابن عاشور والأستاذ سيد قطب ، وهم معاصرون ، عاشوا معنا في هذا الفضاء المعرفي الحديث ، وعرفوا دون شكّ وكتاباتهم تشهد بذلك ،

نظريات الحداثة اللغوية والنفسية والفلسفيّة والتاريخيّة ، بل أن الدكتور مصطفى محمود كتب كتاباً عن « تفسير عصري » يقابل فيه ، بين نظريّات علمية حديثة جداً ، لأنه من أهل العلم ، انتهى اليها البحث الحديث ، وبين نفس النظريات وقد وردت في القرآن بصيغ مختلفة في كثير من آياته البيّنات ، ولعل قراءنا في تونس ، مازلوا يتذكّرون دراسات الدكتور البشير التركي المتعدّدة عن الإعجاز العلمي في القرآن ، وهو عالم ذرّة مشهور في دوائر العلم المختلفة ، فاذا كان الأستاذ أركون ، لا يرى حداثة إلاّ أن ندرس القرآن من زاوية أنه نصّ وضعي ، كالنص الشعري تماماً « كما كان الفلاسفة يفسّرون الإبداع عند النبي ، النبيّ يبدع بمخليّته الفائقة ، ويبدع الرموز الخلاقة بمخيّلته ، كما الشاعر أيضا يبدع رموزا بخياله الفيّاض » فان ذلك أمراً لا نتفق فيه معه ، لأن « فرويد » العالم النفسي المشهور ، وصاحب هذه النظرية ، حينما أجرى فحوصه الطبيّة النفسيّة ، على المهلوسين والعصابيين من المرضى ، وعلى الفنّانين من غير شكّ ، وانتهى إلى نتائج هي صحيحة إلى حدّ الآن ، قفز قفزة غير محسوبة ، فقد عمّمها على أناس ، تفصل بينه وبينهم القرون الطوال كالأنبياء مثلا ، هو يشير في دراسته عن « ليوناردو دافنشي ودستويفسكي » ، أنه يعتمد الوثائق

والرّوايات ، ولكن إلى أي مدى يصحّ هذا ؟ قد يصحّ القياس بالنسبة للفنّانين ، ولكن الأمر جدّ مختلف بالنسبة للأنبياء ، فلم نسمع أو نقرأ أنه التقي بواحد منهم ، الاّ أن يكونوا أنبياء كذبة ، بغير دليل أو كتاب ، فهناك فجوة إذن في هذه النظرية النفسية ، وبالتالي لا تصح المقارنة بين الشاعر والنبي ، فلكل منهما طبيعته ومجاله ، ومن وجه آخر ، فان النص القرآني ، لا يستجيب لتلك المقارنة ، فهو محكم التنزيل ، بيّن الدلالة ، قويّ الحجة يدعو إلى صحوة العقل والنفس والضمير ، يضع بين أيدي الناس كافة ، شريعة وسطا ، تراعي تطور الناس والمجتمع والحضارة والعصر ، ويخضع دائما إلى ألوان من التأويل والتخريج ، وفنون من التفتّح ، لم تعرف بعد في كتاب قديم أو حديث .

يميّز محمد أركون ، بين إثنين من الناس ، أحدهما مثقف حرّ ، من نمط فولتير وسارتر وثانيهما مجتهد أو عــالم ، كالغزالي وغيره ، وهو يرى أن النمط الأول لا وجود له في الحضارة العربيّة الإسلاميّة منذ انبثاقها « نعم يمكن أن يبعث حيوية كما فعل الغزالي في إحياء علوم الدين ، الذي فيه حيوية فكريّة ، فيه إنتاج صالح للمجتمع ، صالح للفكر ، ولكن ضمن النسيجة الدغمائية التي لم يخرج منها

أبداً ، بل أيضا أحدث مواقف سلبيّة بعمله » ولكن هذا إدّعاء لا وجه له كما يقولون ، لأن الغزالي صاحب مواقف فكرية مشهودة ، فقد نقد ثقافة عصره ، نقداً لا تردّد فيه ، نقد الفقهاء والمتكليمن والفلاسفة والمتصوّفة أيضا ، وروى في سيرته الروحية ، التي ضمّها كتابه « المنقذ من الضلال » ، كيف أنه بقي مدة متعطلا ، حائرا متشكّكا ، في كل عقيدة أو رأي أو مذهب ، إلى أن انتهى إلى ما انتهى إليه ، مما هو معروف مشهور ، قد يكون ذنب الغزالي الوحيد ، عند محمد أركون ، أنه لم يخلع عنه مرّة واحدة وإلى الأبد ، ذلك الناموس الديني الأزلي ، ولم يرفض جملة وتفصيلا ، ما حتّمه النظر العقلي الاستدلالي ، وما قام في الوجـدان والروح ، من تجارب تتلظّي ، تأنس للحق والعدل والخير .

ولا أحبّ ان أختم هذا الحديث ، قبل أن أدين الموقف الغريب ، من الفيلسوف رجاء غارودي ، الذي اعتنق الإسلام ونظّر له ، وجال هنا وهناك في الأقطار العربية ، فقد رأى محمد أركون « أن هذا لدليل على أن المجتمع مريض ، وأنه لا يدرك ما يعتمل في باطنه ولا يفكر فيه ، بل يلجأ الى جميع الوسائل المتاحة له ، ليستغلّ الظاهرة الدينية ، استغلالا إيديولوجيا ، وهذا خطر يجب ان ننبّه اليه الشبّان »

وإني لأعتبر هذا الكلام شعوذة ولغوا من القول ، ينبغي الا يستمع اليه ، هو شبيه بموقف العنصريين الإسرائيليين ، الذين رفعوا قضيّة أمام المحاكم الفرنسيّة ، ضد غارودي ، لأنه كتب كتاباً ترجم إلى أهمّ اللغات الحيّة ، ندّد فيه بالصهيونية وأكاذيبها المزعومة في أرض الميعاد ومن يدرينا فلعل الأيام تكشف لنا ، حقيقة أطروحات محمد أركون ، وما يكمن خلفها من شرّ يريد أن يهدم ويفسد ، ولكنه يرتدّ دائما كسيراً مدحوراً .

« محرز بن خلف » هل كان شعوبيًا ؟

يحتل الشيخ محرز بن خلف ، في نفوس التّونسيين ، على تنوع طبقاتهم وثقافتهم ، منزلة هامة ، تجلّلها الكرامة والتقديس ، لم تستطع القرون الطوال ، وألوان التغيير والتجديد التي حملتها ، أن تضعف من حضورها التاريخي في أنماط سلوكهم الفردي والجمعي ، وفي أن يقبل العديد منهم ، على تفحّص سيرته ، وانتقاء ما يريدون منها ، ليتخذوا منها القدوة الحسنة ، والعبرة التي تنفع في عاجلهم وآجلهم .

حدث ذلك في الأمس البعيد والمتوسط والقريب ، وهو يحدث الآن في الربع الأخير من قرننا العشرين ، قرن الثورات المادية والانقلابات الاجتماعيّة التي عصفت بأشياء عديدة ، وقيم كثيرة اعتمدها الناس دهراً طويلا ، ثم تخلّوا عنها كأن شيئا لم يكن مذكورا .

ما هي حقيقة هذا الرجل الذي تواصل ذكره الحسن إلى اليوم ؟ يذكر التاريخ المدوّن في السجلّات ، والمروي بين الناس تواتراً ، أنه رجل دين من الصالحين ، تفرغ لتعليم

القرآن والحديث ، وانقطع للتهجّد والعبادة في كل أوقاته، وأنه إلى ذلك رجل عمل ، شأن الصادقين من العلماء ، كان سنيًا على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، رغم أن مذهب الدولة الرسمي كان شيّعيًا ، وأنها كانت تتبّع المخالفين لها ، بكل عنف وقسوة ، ولقد صمد يدعو الناس إلى مذهبه ، فالتفّ الكثيرون حوله ، واستطاعوا أن يناهضوا المذهب الشيعي ، وأن ينتصروا للسنّة حتّى سادت آخر الأمـــر .

هذه صورة خاطفة عن الرجل ، تؤكّد ما هو معلوم في التاريخ ، من أنه رجل صلاح وفضل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، يأبى بكل قوة أن تعطل شريعة الله ، بما رسمت من حدود ، وبما فرضت من واجبات ، فكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، لذلك فقد امتدّت يده القوية ، تحمي الضعفاء والمحتاجين ، وتسبغ على أهل الذمّة ، من يهود ونصارى ، رعايته وحمايته ، بيد أن هناك من يرسم صورة أخرى ، مغايرة تماماً لما هو معروف من أمره ، فقد ظهرت دراسة عن « محرز بن خلف » كتبها المرحوم زين العابدين السنوسي ، صاحب « دار العرب » وصاحب مجلة « العالم الأدبي » وكتاب « الأدب التونسي في القرن الرابع عشر »

والذي قدّم أعمالا أدبيّة أخرى ، كان لها أثرها الطيب في التعريف بالأدب التونسي وبكثير من رجاله المجهولين ، حاولت هذه الدراسة أن تقدم لنا الشيخ محرز ، تقديما آخر ، يعتمد الافتراض والتخيّل ، ويعتمد أفكاراً مسبّقة أقحمت على الرجل إقحاما ، حتّى أخرجته عن حقيقته الدينيّة ، إلى رجل عنف وعصبيّة ، لا همّ له إلا أن يقتل من لم يكن على مذهبه ، وإلاّ أن يفصل مسلمي المغرب عن مسلمي المشرق !!

يفترض السنوسي أن الشيخ محرز ، مؤمن بالأمة الإفريقية التي تعتزّ بتاريخها القديم قبل مجيء الإسلام ، وأن عنوان ثورتها في القرن الرابع الهجري كان « الثورة ضد المشارقة » هؤلاء الذين استأثروا بالسلطة ، وطمسوا معالم الحضارات القديمة ، وهو يرى أن تغنّي الشيخ محرز بأطلال قرطاجنّة في قصيدته الشهيرة ، إنما كان « تمجيداً للحضارة القرطاجنية ورثاء لأطلالها » وهو في النهاية وطني إفريقي ، عاش لاستقلال افريقية ومات في سبيلها ، وكما هو واضح ، فان زين العابدين السنوسي ، يغالي كثيرا في تأويل أحداث الصراع المذهبي ، الذي نشأ بتونس في القرن الرابع الهجري ، ولا يراه صراعاً طبيعيا بين المذاهب

الدينيّة ، عمّ كل الأراضي الإسلاميّة في أوقات كثيرة ومختلفة ، فلو سلّمنا جدلا بتأويله للأحداث ، والتي أرجعها إلى عنصريّة جغرافيّة وعرقيّة ، فكيف يستقيم فهم الأحداث الأخرى التي شبّت بمصر والشام والعراق وفارس ؟ خاصة وأن القوة الضاربة للخلافة الفاطميّة (الشيعية) إنما كانت تعتمد العناصر الإفريقية الخالصة ، قوّداً وجنودا ، أضف إلى ذلك ، أن عناصر السكان الأفارقة بشمال القارة ، كانوا قد تعرّبوا وحسن إسلامهم ، بعدما تبيّن لهم أن كلمة الاسلام هي الحق ، وأنها سبيلهم الوحيدة إلى التحرر من وثنية أنفسهم ، ومن وثنية ظلم رومة وأوروبا بعامة ، ثم إن الشيخ محرز نفسه - زعيم الثورة الإفريقيّة في نظر السنوسي - لم يكن إفريقيا بربريًا ، وإنما كان عربيًا خالص النسب ، يرتقي إلى أبي بكر الصديق فهو : أبو محمد محرز بن خلف بن رزين بن يربوع بن إسماعيل بن حنظلة بن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق ، وهذا النسب يمنعه بطبيعة الحال ، أن يتعصّب ضد العرب المشارقة ، أو أن يمكّن لعصبية أخرى ، أن تنال من العصبية الافريقية ، أما تأويل قصيدة « قرطاجنّة » ذلك التأويل الذي يخدم فكرة الوطنيّة الإفريقيّة ، فغريب حقا ، لأن القراءة العابرة لها ، تكشف عن غرضها الحقيقي الذي أنشئت من أجله ، وهو الاعتبار بأحداث القرون ، وأن البقاء

لله وحده ، وكل مقطع من هذه القصيدة ليدلّ على ذلك ، انظر مثلا إلى هذا المقطع الذي أخذناه من وسطها :

فلما انتهى بنيانهم ثم أوصلوا
بها من زلال الماء ما قد تفرّعا
وفرّقه بين القصور جداولا
وأفرطه حتى أعمّ وأشبعا
طغى إذ رأى ما تمّ من أمر ملكه
فلم يغن عنه ما بناه وما سعى
تعلق من نيل الأماني بكرة
ومازال يلوي الحبل حتى تقطعا
سقته يد الأقدار كأس منيّة
فخرّ ذليلا للردّى حين أمرعا
وخلّى ظباء الملك غيداً وخُرّدا
وحجاب أبواب وملك ومارعى
وسار لضيق اللّحد من بعد عزّة
وصارت له الأرماس والتّرب مضجعا
فلم يغن عنهم ما بنوه وشيّدوا
وما متّعوا في الدهر مع من تمتّعا

فهو واضح الدلالة على أن الشيخ محرز كان رجل تصوف واعتبار، وأن وقوفه بالاطلال ، لم يكن وقوف إعجاب وتمجيد لحضارة قرطاجنية أو غير قرطاجنية ، وإنما كان لاستلهام العبرة من أحداث القرون الأولى تلك التي خلت ، ولم يتبقَّ منها إلا الدليل على وجود الناموس الأكبر الذي إليه مآل الناس جميعاً .

وهكذا يتبيّن أن الصورة التي قدمها السنوسي لمحرز بن خلف ، لم تكن في الحقيقة إلا أفكاراً معيّنة للوطنيّـة الضيقة ، أراد السنوسي أن ينسبها للشيخ فجاءت على غير قياس كما يقولون ، أو جاءت غريبة في غير محلّها ، وقد تكون الأحداث التي عرفتها تونس وبعض البلاد العربية الأخرى ، في أواخر الخمسينات ، هي التي أملت عليه ما كتب وما تأوّل .

على أن الإنصاف يقتضي الإشارة إلى الجهد الحسن الذي قام به أحمد الطويلي ، في تقديم الدراسة ومراجعتها والتعليق عليها ، وقد وفّق في ذلك التوفيق كله ، وكانت تعليقاته المتواصلة على النص خير معين للقارئ الذي لا يعرف الشيخ محرز المعرفة الحق .

مع توفيق الحكيم

قرأت بأحد ملاحق « الرأي العام » الكويتية (جولية 1987) مقالا للكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم ، تعرّض فيه لبعض تجاربه البارزة في الأدب والحياة ، ثم قيّم في جزء منه ، أعماله الفنيّة والفكريّة والإبداعيّة ، التي تواصلت عقوداً طويلة من الزمن ، عبر رحلة العمر التي بلغت التسعين إلا قليلا ، فأسف أسفا عميقاً ، للجهد الطويل المضني الذي أضاعه ، بين القلم والقرطاس ، وهو ينتج هذه الآثـار العديدة ، التي لا يدري مدى أثرها في الناس ، وما أحدثته من تغيير في العقول والقلوب ، ولكنه موقن من أنّ صوتها ، سريعاً ما يتبدّد وسط ضجة الإعلان وضوضاء المصالح ، التي جرفت كالطوفان الكاسح ، كل ما لا يتفق وطبيعتها الاستهلاكيّة ، ويعترف بتأثّر أنه لم يجن على نفسه فحسب ، ولكنه جنى على ابنه وزوجته أيضا ، فقد أهمل رعايتهما ، ولم يسبغ عليهما من العواطف والأحاسيس ما هما في حاجة إليه ، حتّى خرجا من هذه الحياة دون هناء ، غير حسرات بليغة ، تتفجّع لها نفسه ، بين حين وحين .

نحن ندرك أيها الكاتب الكبير ، ظروف الوهن التي ألمّت بك في السنوات الأخيرة ، حتّى تعجّلت الموت مراراً ، ونحن نشاركك بالطبع كل أحزانك ، ونتأثر عميق التأثر لنبل عواطفك الإنسانيّة ، تجاه عائلتك الصغيرة التي ألهتـك عنها ، مشاغل الفكر والأدب والفن ، ولكننا لا نشاركك الرأي في عدم جدوى الكتابة ، وفي ضياع جهودك الابداعيّة سُدى ، بين أناس لا يقرأون إلاّ أن تدعوهم إلى ذلك مناسبة ، فقد كنت دائماً ولازلت ، صاحب القلم الذي يحرك جماهير القراء والمثقفين ، في الشرق والغرب من وطننا العربي ، ويبادهُهُم في كلّ حين ، بفنون من الكتابة والرؤيا ، وصنوف من الإبداع والفكر ، كثيراً ما أغنت منهم النفس والعقل ، وأتاحت لهم أن يتعمقوا درس واقعهم وتراثهم ، وأن يكتشفوا أنهم لم يكونوا قط عالة على غيرهم ، وإنما هم أصحاب حضارة ، وبناة ثقافة لا تبيد ، ذلك أنك أدركت معنى المعاصرة الحق ، الذي إليه يحتاجون ، فارْتدْتَ لهم فن المسرح وأصّلته بينهم تأصيلاً قويماً ، يضارع صورة المسرح الحديث ، كما تعرفه الدنيا الجديدة ، منبجسا في آن من حقيقة تراثهم الخالد ، حين كتبت لهم « أهل الكهف » ، تعالج بها قضية الزمن ، التي ضاع الشرقيون بين أقبيتها طويلا وأبنت لهم بفنّك الجميل ، أن الإنسان ابن عصره أو لا

يكون ، وأن العيش في متاهات الماضي هو موت بمعنى من المعاني ، وكنت بهذه المسرحيّة كما قال الدكتور طـه حسين ، أول رائد للمسرح العربي الحديث ، بل إنك الأب الشرعي لهذه النهضة المسرحيّة التي تتحرك هنا وهناك ، في كل أنحاء الدنيا العربية ، والتي أخذت ترعاها حينا بعد حين ، وتثريها بمسرحياتك الجديدة المتعاقبة ، تعالج بها قضايا النهضة والتطوّر في شتّى مجالات الفكر والاجتماع والسياسة ، حتّى اشتكى الكاتبون ، بأن قامتك العملاقة ، تسدّ أمامهم المنافذ إلى البروز والظهور ، وارتدت لهم كذلك فنّ الرواية ، وإن سبقك إليها آخرون ، إلا أن روايتك « عودة الروح » تبقى دائما في مرآه كل نقد منهجي ، الأثر الحي الذي تتوفّر فيه كل عناصر البناء الفنّي الراقي لفنّ الرواية ، والتي ظلت بمقتضى ذلك الأسوة الحسنة ، التي سار على دربها الكثيرون ، من كتّاب الرواية كباراً وصغاراً .

أنت إذن أيها الكاتب الكبير ، لم تكن قليل الشأن في أمتك العربية ، ولا محدود السلطة لدى قرائك ، الذين يتّسعون يوما فيوماً ، في المدارس والمعاهد والجامعات ، وفي غيرها من مستويات الهياكل الاجتماعيّة ، ولقد كرّمت بما لم يكرم به غيرك ، في جميع أنحاء الأرض العربية ،

فهذا أحد الوزراء في مصر ، يقترح في مجلس الوزراء إخراجك من دار الكتب الوطنيّة كحافظ لها ، فاذا بالرئيس جمال عبد الناصر يتصدّى له مغضبا : يجب أن تعلم أيها الوزير أن « عودة الروح » كانت من الأسباب التي دعتني الى الثورة ، وأنه أفيد لمصر الثورة أنْ يكون توفيق الحكيم ، أحد وجوهها البارزة ، من أي وزير مهما عظم شأنه ، ويقول الرواة ، أن قراراً رئاسيًا ، صدر بعزل الوزير بعد ذلك بأيام ، والكثيرون يعلمون أيضا ، أن أحد كتّاب مصر المعروفين ـ أحمد رشدي صالح ـ نشر مقالات بمجلة آخر ساعة ، يتهجّم فيهاً على بعض آثارك الروائية والمسرحيّة ، ويعقد مقارنة بينها وبين بعض آثار أحد الكتّاب الإسبان المشهورين ـ خوان خيمينيث ـ فاذا بالدولة الناصريّة ، تدعوك لحفل عام ، تقلّدك فيه أرفع الأوسمة ، مع الجائزة الكبرى بالتقدير ، اعترافاً منها بجهودك العظيمة في خدمة العربية وآدابها ، ووفاء منها لما أسديت إلى الوطن العربي ، من جميل لا تضيع معالمه أبداً .

ورغم أن كتاباتك انحسرت منذ سنوات ، إلاّ أن كتبك ومازلت تنشر وتوزّع ، وتعقد لها الدراسات المتنوعة ، ومازالت الفارس الذي يرجع إليه دائما ، ولنتذكر جميعا وأنت

معنا ، أن الدولة السعوديّة حين دعتك لضيافتها الصحيّة ، في أرقى مستشفياتها ، فانما كان ذلك قياماً بالواجب ، إزاء رجل ضحّي بسعادته العائليّة والشخصيّة من أجل غيره في كل بلاد .

- 2 -

شيّعت مصر في احتفال مهيب ، مفكرها وفنّانها توفيق الحكيم ، تعرب له بذلك عن جوهر وفائها ، وعميق تقديرها ، وصدق حبّها ، للجهود الرائعة التي بذلها في سبيل المجتمع والإنسان ، ولألوان الابداع الفكري والفنّي والأدبي ، التي أنجزها باقتدار وصبر نادرين ، وهو موقف منها جميل ، طالما أسبغت أمثال أمثاله ، على كلّ أبنائها العاملين ، من الكتّاب والمفكرين والمصلحين والفنّانين ، كأحمد شوقي وحافظ ابراهيم والعقاد وطه حسين وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ، تقليداً راسخاً ، يتجدّد عبر الأيام والأحداث ، يذكّر الناس بالقيم التي ينبغي أن تدوم ، وبالأصيل النافع الذي ينبغي أن يبقى ، وبالمجد الأثيل الذي يجب أن تستشرف إليه السبل ، وأن تسعى اليه الجماعة ، ليكون عنها بلاغاً ، وعلامة ضوء في مسيرة التاريخ والتمدّن .

والحق أن هذه المنزلة الرفيعة ، التي ارتقى إليها الحكيم ، لم يكن الوصول إليها سهلا ، ولا الطريق إليها معبّدا ، فقد كان الاشتغال بالأدب ، في مطلع هذا القرن العشرين ، يعدّ ضرباً من البطالة ، وفنّا من التحذلق الذي لا طائل من ورائه ، أو هو كما وصفه أحد علماء تونس الكبار : « يراه أهل النُهى ، من جملة اللعب » وفي أحسن الأحوال ، فان صاحبه يُحتاج إليه في مناسبة عابرة ، يستدعيها فقد قريب وعزيز ، أو تكريم رجل ، يهمّ تعداد محاسنه والخلائق ، أو الشّدْو بهذه الحادثة الكبيرة أو الصغيرة ، التي تقتضيها حركة الناس ، في صراعهم مع الأحداث والخطوب ، وهو في كل الأحوال طارئ متطفل ، يغشى المجالس ، فلا يسأل إلا عن آخر ملحة أو نادرة ، أو حكاية طريفة يبتسم لها مجلس متجهّم ، لم تخترع له بعد وسائل التلهية والإمتاع ، وفي كثير من الأحيان ، إبّان نشوء الأحزاب والجمعيات والصحف ، تختلق ، وتثور صراعات ، يكون الأدباء والكتّاب لها وقوداً وأخشاباً ، يكتبون بالوحي الذي يملى ، وحسب الأجر الذي إليهم ينتهي ، لا رأي يستقلّون به ، ولا موقف ينطلقون منه ، أو اليه يعودون ، وهكذا عرف الناس لفترة طويلة ، أن فلاناً ينطق بحزب فلان ، أو باسم تلك الجريدة ، التي يهمها أن تهاجم الجماعة

الفلانيّة ، غير أن المجدّدين من كتّاب مصر ، هؤلاء الذين ايقظتهم حركة الوعي الجديد ، بالديمقراطية والقيم الإنسانيّة الجديدة ، أمثال العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ، رفضوا بإباء أن ينساقوا مع التيّار ، أو أن يكونوا ورقة صغيرة ، تعبث بها رياح الأهواء والمصالح والنزعات ، فآثروا الوقوف في قلب العاصفة ، وأعلنوا مواقفهم وآراءهم ، دون موارية ، مستهزئين بالصعاب ، وبما يحدث حولهم من جلبة وضوضاء ، ونتيجة لذلك تأسست مدارس فكريّة وأدبية وفنيّة ، وانبثقت في قلب الواقع الجامد ، حركات اجتماعيّة عريضة ، تحترم الأديب والفنّان ، وتترقب منه باستمرار أن يعلن الموقف الصارم ، الذي ينير الدروب المبهمة ويكشف للجماهير القارئة ما يترصّدها من أحداث .

ومن أجل ذلك ، ظل توفيق الحكيم بعيداً عن السلطة ، بعيداً عن الأحزاب ، فله رأي يريد أن يجهر به ، وله قضية يريد أن يثيرها ، وله تجربة يريد أن يمارسها ، وله عهد مع قرائه لا يريد أن ينكثه بحال ، وبهذا نفسّر تعدّد مواقفه ، وتنوّع تجاربه الفنية والأدبية ، هو مثال لذلك الفنّان الحر ، الذي تخلّص من كل قيد ، إلا قيد الفنّ والفكر ، وما يقتضيان من صدق وإخلاص ، ومع ذلك ، فقد وجد نفسه ،

يصدر عن فكر معيّن ومذهب محدّد ، سماه « التعادليّة » وشرحه في كتاب ، معلوم مشهور بين القراء ، وقد أدّى به هذا الموقف الحرّ ، إلى نوع من المبالغة ، لم يحمدها له كثير من دارسيه وقرائه ، فقد عابوا عليه أشياء كثيرة ، وردت في كتابه « عودة الوعي » حين نقد الرئيس جمال عبد الناصر ، نقداً جارحاً ، لم يراع فيه الإيجابيات الكثيرة ، التي حقّقتها الثورة للشعب المصري ، وما أنجزته من مكاسب ، حرّرت الفلاّح من طغيان الإقطاع ، منذ عهد الفراعنة ، ودفعت بالثقافة والأدب إلى مستوى لم تعرفه طيلة عهودها ، كما آخذوه بموقفه الغريب من معاهدة « كامب ديفيد » تلك التي كرّست الصلح مع اسرائيل ، على حساب القضيّة العربيّة ، والقضيّة الفلسطينيّة بالدرجة الأولى ، لقد حاول الدفاع عن موقفه فيما بعد ، ولكنه جاء خلواً من كلّ إقناع ، وسيبقى موقفه هذا ، علامة دهشة واستغراب وتعجب ، وستظل ذاكرة القراء العرب ، تذكره في كلّ حين !! .

العقاد ... هل قتل حقا ؟ !!

نشرت جريدة « الرأي العام » الكويتيّة ، بعددها الصادر في الثاني والعشرين من شهر جوان 1987 ، مقالا بـدون توقيع ، عنوانه « من قتل العقاد ؟ » وردت فيه أشياء خطيرة ، تتصل بالظروف المريبة التي توفي فيها الأستاذ عباس محمود العقاد ، منذ أكثر من عشرين سنة ، فقـــد « بدأت أصابع الاتهام تشير فجأة ، إلى أنه مات بطريقة غير طبيعيّة وأن الأقوال اختلفت حول حقيقة وفاته ، فتارة يقولون إنه مات بجلطة مفاجئة ، والبعض يقول إنه مات بأزمة المصران الغليظ ، ولكن الحقيقة تظل ضائعة ، بين تضارب تلك الأقوال ، واختفاء شهود الواقعة ، الذين يعرفون أدقّ التفاصيل ، ويبقى السؤال الخطير ، هل مات العقّاد مقتولا ؟ ومن الذي قتله ؟ ولماذا ؟

وقد حاول صاحب المقال ، أن يتعرّض إلى خفايا اللحظات الأخيرة ، من حياة العقاد ، والأشخاص الذين حضروا الوفاة ، من أقرباء كابني أخويه عامر ورستم ، وأصدقاء كأنيس منصور وعلي أدهم ومحمد خليفة التونسي

، وزكي نجيب محمود ، وما جاء في أقوالهم من تناقض واضطراب ، فقد « وجد في فنجان الشاي ، بقايا منوّم قوي ، قيل أن العقاد تناول منه كمية كبيرة ، ووجد أثر واضح لضربة على رأسه ، نزفت دماً ، تجمّد في منطقة الجبهة ومؤخّرة الرأس ، وقال رستم مبرّرا ذلك ، إن العقاد سقط على الأرض ، حين فاجأته الأزمة ، وقال عامر إنه سقط على حافة السّرير ، أثناء أزمة المصران الغليظ الذي أودى بحياته » .

إذن فهناك وقائع وأدلّة قد تكون ثابتة ، وقد تكون هناك وثائق أخرى ، هي خفيّة إلى حدّ الآن ، لكنها قد تظهر في الإبّان ، فاذا أثبت التحقيق أن الأمر جدّ ، وأن مؤامرة قد دبّرت لتصفية العقاد ، فعندئذ يصحّ للمتشائمين أن يتشاءموا ، وللساخطين أن يسخطوا ، فليس بعد هذه الجريمة جريمة ، ولا فساداً في التقدير يبلغ حدّ هذا الفساد ، لأن القضيّة تتجاوز شخص العقاد ـ الشيخ المسنّ الضعيف ـ إلى الفكر العربي نفسه ، والسعي إلى هدم أصوله الثوابت ، وإسكات الأصوات الحرة ، التي تجنّدت للدفاع عن قيم الحضارة العربية ، أمام مدّ رهيب من فوضى الغزو الثقافي الأجنبي ، وقد كان العقاد دوماً ، ذلك المفكر الأصيل

الشامخ ،، الذي وقف طيلة مسيرته الفكريّة ، يتحدّى الباطل والزيف ، ويعلن في كل وقت ، أن حرية الفكر « فريضة إسلاميّة » وأن النهضة المرجوّة ، لن تتأصّل في مجتمعاتنا ، إلا باحترام الرأي الآخر ، وتمكين القادرين من الحوار والنقاش والخطاب ، وإيمان العقّاد بحريّة الفكر ، لم يكن كلاماً يرسل بمناسبة ، أو عندما تأمن السبل ، وإنما هو موقف منه ، وجـوديّ صميم ، فقد هاجم الاستعمار الانقليزي إبّان سطوته ، وحارب أذنابه حيثما كانوا ، ووقف في البرلمان المصري ، يعلن بقوة أن صوت الشعب فوق كل صوت ، وأن كل من يقف أمامه ، لابدّ أن يتحطّم ، مهما عظم شأنه وعلا منصبه ، وكان يقصد بذلك الملك فؤاد ، الذي كان أداة طيّعة في يد الاستعمار الانقليزي ، وبالطبع فقد حوكم العقاد وسجن ، ولكنّه خرج مرفوع الرأس ، واتّجه مباشرة إلى ضريح سعد زغلول ، ينشد أمامه قصيد الوفاء والإخلاص ، للشعب والوطن والحرية ، وإذا كان قد انتمى فترة من فترات حياته إلى حزب الوفد ، وتجرّد للدفاع عن مبادئه ومواقفه ، فان ذلك لم يمنعه من الاختلاف مع زعيمه مصطفى النحّاس باشا ، وبالتالي الخروج عليه ، فقد قال النحاس باشا يوماً ، وقد اشتدّ النقاش بينهما : ألا تعلم أني زعيم الشعب ، وأن كلمتي لا تردّ ، وأجابه العقاد في ثبات :

إذا كنت أنت كذلك ، فأنا كاتب الشرق بالحق الإلهي ، وكان الخلاف الذي لم يسوّ بينهما إلى الأبد ، هذا الموقف لم يكن الوحيد ، بل إنه يتعدّد في حياته ، تعدّد الرأي ، إذ يختلف حول هذه القضيّة أو تلك ، فقد وقف في وجه النازيين حين انتشرت دعوتهم بقوّة في مصر وغير مصر ، ونشر كتاباً عنوانه « هتلر في الميزان » عدّد فيه سلبيّات شخصيّة النازي ، وتهافت أفكاره الجهنّميّة ، فتعقّبه النازيون وأشياعهم بالتهديد والوعيد ، وأمام وصول جيوش - رومل - إلى الصحراء الغربية ، اضطرّ العقّاد إلى اللجوء إلـــى السّودان ، وقد وقف من الشيوعية نفس الموقف تقريبا ، إذ يرى فيها تهديدا للحرية الفردية ، تسلب من الإنسان أعزّ ما فيه ، وهو قيمه الروحيّة والإنسانيّة ، وصراعه مع الكتّاب الماركسيين معروف ، وقد تجاوز حجمه الطبيعي ، إلى الخلاف حول المدارس الأدبيّة والتجديد الشعري ، مضمونا وشكلا ، بيد أن موقفه من حركة « الإخوان المسلمين » ، اتّسم بصخب وعنف ، يجدر أن يروى ، فقد اشتد الصراع بين الإخوان ، وبين حكومة محمود فهمي النقراشي ، لأسباب مختلفة ، فأقدموا على اغتياله ، وكان العقّاد له صديقاً ، فندّد في مقالات عديدة بالإرهاب ، الذي يتحدّى الإسلام وكل مبدإ إنساني ، وأطلق عليهم لقباً آخر ، هو « خوّان

المسلمين » ، وكان الردّ أن أطلقوا عليه الرصاص وهو في بيته ، ولكنه نجا باعجوبة كما يقال ، ومع ذلك فلم يجبن ولم يضعف ، وخرج كعادته كل مساء ، حيث تعوّد الناس أن يَروْه يتمشّى على مهل .

هو فرديّ التفكير كما ترى ، وداعية كبير للحرية ، ومؤمن بالإنسان ، وضد التطرف المذهبي والفكري والديني ولكنّه وفيّ دائما لمبادئه ، شجاع في الدفاع عنها ، فاذا تبيّن أنه قتل ، فهي ضريبة الفكر الحرّ المسؤول ، الذي يتصدّى لجبن الطاغوت الأسود وسيبقى العقّاد كما كان دائما في القلوب والعقول ، رجل المبدأ الصارم ، والكلمة الجهيرة التي لا تقف أمامها السدود .

ميخائيل نعيمة والمثاليّة المتكسّرة

أخيرا سكنت حركة ميخائيل نعيمة ، سكونها الأبدي ، وهدأت نفسه في مقرّها العلوي ، كما اعتقد هو دائما ، فانتهت بذلك حياة طويلة ، عاشها صاحبها كما أراد ، أو كما أرادت له الظروف والأحداث ، متنقّلا بين طفولة عادية ، في إحدى المدارس اليسوعية بفلسطين ، وبين فتوّة شابّة ، يطلب العلم في روسيا ، وبين أخرى في العالم الجديد ، يستكمل ما يريد أن يستكمل ، من المعرفة والعلم ، ومن العيش والتجربة ، تاجراً وجنديًا مغامراً ، ثمّ عائداً إلى مسقط الرأس لبنان ، يقضي أيام الكهولة والشيخوخة ، ناسكاً متأمّلا ومبدعاً ، بين أودية وجبال قريته الصغيرة .

هذه الحياة العريضة الطويلة ، التي حفلت بالخصب والتنوّع ، وازدهرت بالجديد والغريب والمدهش في هذه البيئة أو تلك ، ألهمت الرجل ولا شكّ ، ألوانه الكتابيّة ، مـــن شعر وقصة وسيرة ومقال وأحاديث يدلى بها إلى الصحف والمجلات ، والتي يمكن أن تلخّص في دعوته إلى المحبّة والسلم ، بين كل الأفراد والشعوب ، والانصراف إلى الحياة

الهادئة ، يستنبط فيها ذاته ، متعرفا إلى أغوارها البعيدة ومتأمّلاً في الوجود من حوله ، وفيما وراءه من قوّة علويّة ، التي صنعت فأحكمت ، وقدّرت فهدت ، وهي كما ترى نزعة صوفيّة ، يمكن إرجاع بعض عناصرها إلى الديانة المسيحيّة ، التي أخلص لها أيمّا إخلاص ، وإلى أدبيات بعض متصوفّي الإسلام ، ومن غير شك فان هذه الفلسفة ، قد أتت تعبيراً عن موقف معيّن من أحداث عصره ، فلقد عاش صاحبها أزمات الحرب العالمية الأولى ، وما خلّفته من دمار وبؤس وشقاء ، وقاسى فيها معاناة الشعب العربي في سوريا ولبنان وفلسطين والنكبات التي ألحقها بها الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، كما شاهد مآسي حروب البلْقان ، وأنواع التدخل الأجنبي ، التي فكّكت أوصال الخلافة العثمانيّة ، وصنوف المذابح الرهيبة التي تعرّضت لها الأقليات وغير الأقليات ، وهي بالطبع أشياء تحدث تأثيرها القوي والعميق ، في عقل ونفس شخصية تمهّدت بثقافة معيّنة ، سمّها ميسحيّة أو صوفية ، كما شئت ، إلا أنها تبقى دائما ثقافة تواصل إنساني ، ومشروعاً حضاريًا لنبذ العنف والقهر والدمار ، والانصراف إلى التآخي والوئام والمحبّة ، بين كافة أفراد النوع الإنساني ، وإذا كان مجانين هذا العالم لا يأبهون لمضمونها ، ويحرصون أن تسود القوة

وتتغلّب المصالح ، ويعلو صوت المدفع والصاروخ على صوت الحق والمبدأ والقانون ، فان ذلك ليس من علامات خطئها أو ضعفها ، وإنما هو الانحدار الفاجع ، الذي انتهت إليه هذه الحضارة المسمّاة بالحديثة :

أخي إن ضجّ بعد الحرب غربيّ بأعماله
وقدّس ذكر من ماتوا وعظّم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظّ موتـــــانا

ومع ذلك ، فان ميخائيل نعيمة ، هذا الناســك المتصوّف ، بدأ حياته الأدبيّة ناقداً ، بكتابه « الغربال » كما هو معروف ، وهو يعكس بوضوح نزعته الجديدة ، في فهم الأدب ونقده ، في زمن سادت فيه حذلقات الإنشاء والقوالب الجوفاء ، والولوع بالغريب والبديع ، واغتنام المناسبة العابرة وغير العابرة ، لذلك جاء نقده لأحمد شوقي وسواه من الشعراء ، ذلك النقد الجادّ العنيف ، في حجم حركة التجديد الأدبي ، التي نهضت بها جماعة « الديوان » في مصر ، بزعامة العقاد والمازني وشكري ، ولذلك أيضا ،

رحّب العقاد بنعيمة ، واعتبره ناقداً موضوعيّا مجدّداً ، واختصّه بصفات ، قلّ أن يعترف بها لواحد من أدباء جيله ، حيث يقول عنه : « صفاء في الذهن ، واستقامة في النقد ، وغيرة على الإصلاح ، وفهم لوظيفة الأدب ، وقبس من الفلسفة ، ولذعة من التهكم ، هذه خلال واضحة ، تطالعك من هذا « الغربال » الذي يطلّ القارئ من خلاله ، على كثير من الطرائف البارعة والحقائق القيمة » وإن آخذه بشيء من الضعف اللغوي ، وبشيء من الجرأة في الاستعمال ، « لأن الكتابة الأدبيّة فنّ ، والفنّ لا يكتفى فيه بالإفادة ولا يغني فيه مجرّد الإفهام » .

إن الكتابة عن ميخائيل نعيمة ، متشعّبة لا تتوقّف عند حدّ ، لأننا إزاء أديب كبير ، له إنتاج غزير في كل الأنواع الأدبية ، وصاحب مواقف متعدّدة ، وسيظلّ بحاجة إلى التساؤل الملحّ ، فقد نشرت مجلة « المستقبل » الصادرة بباريس ، منذ سنوات قريبة ، ملفًا في حلقتين ، ضمّ وثائق خطيّة وغير خطيّة لجبران والريحاني ونعيمة ، وغيرهم من أعضاء « الرابطة القلميّة » يطالبون فيها الدول الكبرى ، فرنسا وبريطانيا وأمريكا ، بعد الحرب العالميّة ، الأولى ، بفصل لبنان عن سوريا ، وكانا بلداً واحداً ، بل يلحّون أن

يبقى الإنتداب الأجنبي بأراضي الشام بكاملها ، متّهمين مواطنيهم المسلمين بالتعصّب والاستبداد ، ومدافعين عن صليبيّة المسيحيين اللبنانيين ، دفاعا عجيباً ، تجعل قراء نعيمة ، ذاك الناسك المتصوف والمتسامح ، يستغربون غاية الاستغراب ، أن يصدر عنه موقف كهذا ، لأنه لا يعني في التحليل الأخير ، الاّ شيئا واحداً ، هو التنكّر للمبـــدإ والدعوة ، أو هو الانفصام النفسي والعقلي ، الذي يخلخل مواقف صاحبه ، ويضطرّه إلى ممارسات غريبة عن كل ما هو إيجابي وحق وصدق ، وبالطبع فان تحقيق هذا وتقريره ، يحتاج كما لا يخفى إلى دراسة متأنيّة ، وإلى وقوف تام على كل الوثائق المتاحة ، وهو أمر كما نعتقد ، سيتحقق عاجلا أو آجلا .

مصطفى خريف الشاعر الملتزم

بعد أيام قريبة ، يحتفل الكتّاب والشعراء والمثقفون ، في مدينة نفطة بالجريد التونسي ، بالذكرى العشرين لوفاة الشاعر الكبير مصطفى خريف ، (1909ـ1967) ، فيتحدثون عن فنه الشعري و خصائص تميّزه ، ويتوقفون عند موضوعاته المتنوعة ، الذاتية والاجتماعية والإنسانيّة ، ويتمهّلون ليتذكّروا مفردات حياته التي عرفوه ينجزها مختاراً وغير مختار ، ثمّ يلتثمون ليسمعوه ما استطاعوا أن يبدعوه من ألوان الشعر ، لعلّه أن يجد فيه ، ما يؤنس الوحدة الذأبلة ، ويفتح له خيطا من الضوء ، وسط بحور من الظلام ، لا يعرف له مدى .

وهذا الاهتمام بالشاعر الكبير ، ينبع من وفاء عميق ، وتقدير حسن لألوان الإبداع التي أنجزها الرجل ، عبر رحلته الوجودية القاسية ، وناضل طويلا حتّى يكون للكلمة دورها الخطير ، في مجتمع تسلّطت عليه عوامل القهر الخارجي الاستعماري وعوامل التفتّت الداخلي التي تناسلت من وهن القرون ، وأسّس بالتّالي مع أمثاله من الموهوبين ، الشابي

والبشروش والحليوي والعبيدي والدوعاجي وغيرهم كثير ، أصول هذه الحداثة الأدبيّة والفكريّة التونسيّة العربيّة ، التي أخذت تنتشر وتتنوع ، بعد ذهابهم وأثناء حياتـهم أيضا ، وكانوا بالفعل روّاداً للتجديد الأدبي ، ومبشرين بقيم العصر الجديدة ، التي غزت العالم ، شرقا وغرباً ، ولم يكن ذلك سهلاً ، فقد دفع مصطفى خريف وزملاؤه الثمن غالياً ، بل قاسياً إلى أبعد الحدود ، وإني لأعدّه من أجل ذلك متصوّفا في ملكوت الأدب والشعر ، وعاشقاً للحرف ممتازا ، يذكّرك بأفراد قلائل ، عبر تاريخنا الأدبـي الطويل ، كأبي حيان التوحيدي ، وحافظ إبراهيم وبدر شاكر السياب ، الذين حققوا الطموح الذي يريدون ، وأنجزوا قليلا أو كثيرا ، نموذجهم الفريد ، كما يتصوّرونه في مثل الكتابة الإبداعيّة ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يحققوا شيئا له أهمية تذكر ، في الواقع اليومي الذي يعيشون ، وفي الهناءة الشخصيّة والعائليّة التي بها يحلمون .

كان اسمه كبيراً ، تردّده الصحف والمجلاّت ، وتصخب به قاعات المحاضرة والاحتفال ، ولكنه إذ يمرّ بك ، لا يثير في نفسك أي شيء ، كأن لاصلة بين هذا الاسم المدويّ ، وبين هذا الجسم الضئيل ، الذي يسعي واهناً مطرقاً في سهوم ، لا

يلتفت لما حوله من صخب الطريق ، ولما تثيره الحركة والحديث ، من عنف وضوضاء ، كنّا نسمع عنه الكثير ، فنحسبه بائس الروح والقلب ، يتأكّله الندم ، للمصير الذي انتهي إليه ، ولهذه الحياة البسيطة التي يحياها ، ولكنّنا ما أن نجتمع إليه ، في مقهى « الديوان » بالعاصمة ، في منتصف الخمسينات ، وكنّا بالسنوات الأولى من التعليم الثانوي بجامع الزيتونة ، حتى تتغيّر الصورة ، فقد تحدّث حديث الواثق بالنفس ، الذي لا يهتمّ لغير الفكرة والرأي ، يشرحهما ويحقّقهما ويناقشهما ، نقاشا هادئا واضحا ، ثمّ يستطرد إلى مادة الأدب التي ندرسها ، فيوجّه وينصح بهذا المرجع الجديد ، الذي تنبغي الاستفادة منه ، ويعلن إلينا دائما ،أن التحصيل الأدبي الحقيقي ، هو جهد شخصي بالأساس ، أما قاعات الدرس ، على أهميتها ، فليس لها إلا أن تلقّن المعارف والقواعد ، ثم يروي لنا تجربته الشخصيّة في هذا السبيل ، فقد انتسب إلى جامع الزيتونة ، وترقّى من سنة إلى أخرى ، ولكنّ في الوقت نفسه ، كان ينتسب إلى مدرسة أخرى ، هي مدرسة الصحافة الأدبية ، يتعلم من روّادها ما ينبغي أن يتعلم ، ويحتكّ بمبدعيها ، ليستفيد الفائدة التي يراها ضرورية ، في تنشئة الذوق ونموّ الملكة ، وهكذا اكتشف أن الدراسة المنتظمة ، لا تحقق

الطموح الذي تمتلئ به جوانحه ، فتفرّغ إلى نفسه ، يعالج آراءه وخواطره وأحاسيسه ، ويسوّي منها قصائده وأحاديثه السائرة ، وبذلك تعزّزت به حركة الإبداع الجديد ، وأسهم الإسهام الوافر ، الذي قيّدته الذاكرة والصحيفة والكتاب ، وهو جدّ واع بالمنزلة التي اختارها لنفسه ، وبأسلوب الحياة الذي اطمأنّ اليه ، فقد كان يقول ، ويكتب ، أنه لا يصلح قدوة ومثلا يحتذى ، فالأسرة ضروريّة ، والشهادة العلميّة ضرورية كذلك ، وإنما هو اختيار منه خاص ، أملته مرحلة معينة من مراحل التطور الاجتماعي والثقافي التونسي ، وأملاه تصور معيّن لنموذج الأديب المتمرّد ، الذي شاع في فترة الثلاثينات ، كما تمثّل في سيرة العقّاد ونعيمة وجبران وحافظ ، هؤلاء الذين رفضوا العرف الأسري الجاري ، واختاروا مملكة الأدب ، يأنسون بها ويعتزّون .

كان هادئ الحديث ودوداً ، يطرقك بالجديد والقديم الذي لا تعرف ، ويبصّرك بشعراء وكتّاب ، لا بدّ أن تلمّ بهم ، لكي يكون لك حق في كتابة الأدب ونقده ، ولكنه إذ ينشئ قصائده ، حين تنفعل الأحداث بالخطوب ، وتهدّد الناس والمجتمع سحائب الخطر ، فانه يفتقد الهدوء الذي تعرف ، ويتكشّف لك قويّا صريحاً ، جهير الصوت ، بعيد المرمى :

عزّة الحق أن يقال جهارا

فارفع الصوت في الضياء نهارا

لا تلجلج في الحق ويحك ان حصـ

حص واصدع به ولا تتوارى

افشرك بخالق الحقّ أم انْـ

ت بآلاء ربّنا تتمارى

وفرار به إلى ظلمة الأرْ

كان سراً فما أمرّ الفرارا

أم خفاء فكيف هذا وأنّى

وهو يبدو كالشمس نور ونارا

أنا أخشى إن سمت حقي جحودا

أن أرى صرحه غدا منهارا

ويقيني به تبدّل شكّا

وشموخي به استحال صغارا

ورغم أن مظاهر حياة مصطفى خريف ، توحي بالعزلة والانفراد ، إلا أن شعره يعطيك انطباعاً كافيا وواضحاً ، بأن الرجل اجتماعي ، يتأثّر لما يحدث حوله ، ويسرع إلى تسجيل موقفه كأنبل ما تكون المواقف ، تجد مواقفـه

محدّدة ، من قضيّة فلسطين الشهيدة ، ومن ثورة الجزائر الخالدة ، ومن قضيّة الوطن التونسي المجيدة ، ومن وحدة المغرب العربي ، التي آمن بها دائما ، اقرأ هذه الأبيات في « رثاء فلسطين » عقب النكبة بقيام إسرائيل ، لتدرك هذه العاطفة الصادقة المتأجّجة ، التي تعكس الألم المرير ، والفجيعة الكبرى ، التي أصابت كل النفوس الأبيّة .

فهل صحّ أن القدس ألفى بارضه
ثعالب تفري جلدها وثعابينا
وهل قدروا ويل لهم كيف قدروا
ورموا عتواً في مقام النبيئينا
وهل وطئوا المسرى المبارك حوله
ليبدو الخنا والرجس فيه أفانينا
أحق تراث الرسل نهب مقسم
أحق غزا جيش العدوّ فلسطينا
فوالهف قلبي حين أمست أسيرة
مكبلة تشكو الهوان وتدعونا

ونحن قعود تزد هينا سفاسف
وتضحكنا دنيا الغرور وتلهينا

ومع ذلك ، فقد يعنّ لبعض الكتّاب أن يتحدثوا ، بأن جيل مصطفى خريف ، من شعراء وكتّاب ، وهو الجيل الذي ظهر في الربع الثاني من النصف الأول لهذا القرن ، والذي غلبت على قسم منه كبير تسمية « جماعة تحت السور » قد أهمل قضايا الاجتماع والسياسة ، وما يطلق عليه القضايا الجادة ، التي تباشرها الجماهير الشعبيّة ، في سعيها المتصل للتحرّر من طاغوت الاستعمار والتبعيّة ، لتوكيد وجودها الحضاري ، وترسيخ قيمها الأصيلة ، التي امتدت لها جذور ، مشرقا ومغربا ، وانصرف إلى حياة هامشيّة ، يصوّرها عابثا أو غير عابث ، أو يمارسها لهواً وفراغاً ، غير عابئ بما يحدث حوله ، من ألوان الصراع الفكري والعقائدي.

يبدو أن التمعّن في إنتاج هذا الجيل ، والذي استمرّ تقريبا عقوداً ثلاثة ، يعطينا ارتساماً مغايراً ، فان فيه المواقف الواضحة ، من كثير من قضايا التسلط والإرهاب ، التي كان يعمّمها الاستعمار على أغلب طبقات الشعب ، وفيه الدعوات الحارة لليقظة والتطور وفيه التوجيه إلى بناء الشخصيّة الوطنيّة ، على أسس من العلم والعقل ، وفيه هذا التجاوب العميق مع قضايا العروبة ، التي تتحرك بها الجماهير العربية ، وفيها أيضا ـ وهو هام ـ اختلاف وجهات

النظر في بعض القضايا ، كالحوار الذي نشب بين دعـــاة « الأدب القومي التونسي » ممثلين بمحمد البشروش ، ودعاة الأدب العربي ، ممثلين بمصطفى خريف ، وإن لم يكن أبرزهم ، إذن فهذا الجيل لم يكن هامشيًا ولا متبطلا ، وإن كانت ظروف العيش التي يحيونها ، ونسق العلاقات فيما بينهم وبين غيرهم توحي بغير ذلك ، وإنما هو جيل حاول التمرّد على أوضاع مجتمعه وعصره ، من أجل تأسيس أدب جديد ، وتناول عصري لقضايا التطور ، التي كانت تقتحم الساحة الاجتماعيّة ، وتفرض على الناس فرضاً ، أن يفكروا في أطروحاتها الجديدة ، وفي مستوى العلاقات التي ستتغيّر حتماً تبعاً لذلك .

لقد كتب مصطفى خريّف الكثير شعراً ونثراً ، وسجّل على امتداد حياته الأدبيّة مواقف جادة من قضايا الوطـــن التونسي ، سياسة واجتماعاً ، ومن قضايا المغرب العربي ، وسائر قضايا العروبة بعامة ، تجعلنا نعجب لهذا التصوير المكين لقضايا جماهيرنا ، ولهذه الأحاسيس الفياضة التي شملتها ، وهي تزحف لإعلان صلتها الوثقي بمغرب العرب ومشرقهم ، وتدفعنا دفعاً إلى تمجيد هذا الروح الصادق الذي سرى في أشعاره ، فهزّ بها النفوس ، وحرك بها الكوامن

الهاجعة ، ورسم بها آمالاً ، تصوّر أنها انطفأت إلى الأبد ، انظر كيف حيّا الطلاّب الجزائريين ، في ذكرى الشيخ عبد الحميد بن باديس ، سنة 1946 :

قابسط يداً لبني أبيك مصافحا

وخذ المحبّة واعط وادفع واجذب

فهم الأعزّة من سلالة يعرب

نفدي بمهجتنا سلالة يعربِّ

الذائدين عن الحمى إمّا علا

بديارهم وهج الغبار الأشهب

والوارِدين إذا تكدّر ماؤهم

قلب النجيع الأحمر المتخضّب

ثم انظر كيف كرّم وفداً مغربيّاً زار الخلدونيّة سنة 1947 :

تحيات شوق لا تعدّ ولا تحصى

من المغرب الأدنى إلى المغرب الأقصى

ومن تونس الخضراء حلية ودّها

لمراكش الحمرا تعلقها خرصا

ومِلء فؤاد الأخت عطفا ورحمة

إلى الأخت ماسارت قوافلها نصّا

فقد نفذ إلى الروح الصميم من علائقنا المغربية التي كانت دوما ، قائمة على العروبة بقيمها الخالدة ، وما انغرس في النفوس من إباء للضيم ، ورفض مطلق لكل هيمنة أو تسلّط ، في بذل وتضحيّة بلا حدود ، وهي أيضا هذه الأخوّة العميقة ، التي نسجت خيوطها عبر الأجيال ، ملاحم البطولة وأحداث التاريخ المشترك ، ولعل الكثير منّا ما يزال يتذكر ، أن أول برنامج إذاعي تونسي ، بعد الاستقلال مباشرة ، تحت عنوان « تحرير المغرب العربي » كان من انتاج شاعرنا الكبير ، فالرجل إذن كان وطنيا صادق الوطنيّة ، وقصائده فيها غرّاء ، معروفة متناقلة ، لا أحتاج إلى ذكر شيء منها ، ولكنّي أشير فقط ، إلى أنه واكب بها كل الأحداث تقريبا ، منذ الثلاثينات ، أيام الشدّة والعسف ، مرورا بالأربعينات فالخمسينات ، إلى سنوات الاستقلال الحاسمة ، أيام معارك بنزرت والجنوب ، وغيرهما ممّا هو مسجّل في الصحائف والكتب ، وهو أيضا مؤمن عميق الإيمان بوحدة المغرب العربي ، ككل أبناء جيله من المثقفين والسياسيين ، وسائر أبناء الشعب الكريم ، الذين ناضلوا جميعا من أجل بناء

مغرب موحّد ، يستطيع باقتدار أن يحمي كيانه ، وأن يحقق وجوده الأخصب الذي يريد ، ثمّ هو أيضا عربي ، فكرا ولساناً ، هدفا ومصيراً ، يهتزّ لهذا الحدث العربي أو ذاك ، وينفعل بحرارة لجميع ألوان السرّاء والضرّاء ، التي تلمّ بالأرض العربيّة ، وهو يعلن فكره ومشاعره تجاهها ، في وضوح وصدق ، كأن الأمر لا يعني أحداً سواه :

عيدا العروبة عد فدتك دمانا
واقبل تحيتنا ومحض هوانا
ملأت بشاشتك القلوب مودة
وتوقدت بشغافها إيمانا
وتحكّمت في الحس حتّى أنها
ملكت عليه السرّ والإعلانا
ذكرى يحيط بها الجلال ومنقب
يحيي النفوس ويوقظ الوجدانا
كان الدليل لدحض إفك معاند
صحب الضلال وحالف الشيطانا

وقضيّة العروبة في فكر شاعرنا ووجدانه ، قضيّة انتماء بالأساس ، وضرورة مصيريّة أيضا و لذلك فهو يرفض أي

انتماء للغرب الأوروبي ، ويرى في ذلك الشرّ المستتر :

أرى صائد الغرب يُدني لنا

من الطعم لوناً لذيذا شهيّا

يلاعب فينا حلوم الصغار

ويخدع منّا الضّعيف العييّا

فيا ويحنا أن وثقنا به

وإمّا اتّخذنا عدواً وليّا

وإما وقفنا بأعتا به

نطالب بالحق فظّا غويّا

نعيد الذي قال في جهره

وننسى الذي في الطوايا خبيّا

ذكر الشاعر في المقدمة ، التي كتبها لديوانه « شوق وذوق » أنه اختار نماذج من أشعاره ، ليعطي فكرة عامة عنها إلى القارئ ولكنّي اعتقد وقد ألمح إلى ذلك أيضا ، أن هناك أشعارا أخرى ـ قد تكون كثيرة ـ مازالت تنتظر العناية والنشر ، وبهذه المناسبة التي انطلقت فيها الاحتفالات بعشرينيّته ، فإني أدعو مقدري نبوغ شاعريته ، أصدقاء

وتلاميذ ومسؤولين عن الثقافة كذلك ، إلى جمع كل انتاجه الأدبي ، شعراً ونثراً ، منشوراً وغير منشور ، وإصداره في أعمال كاملة ، على النحو الذي وقع بالنسبة لصديقه الخالد أبي القاسم الشابي .

البشير خريف الروائي الفنّان

لا أحسب أن كثيرين من أدباء الوطن العربي ، يعرفون شيئا له أهميّة عن الأديب التونسي البشير خريف ، ومع ذلك فهو معروف جيّداً في تونس ، معرفة تتجاوز أهل الحرفة والإختصاص إلى قطاع عريض من المثقفين ، وقرّاء الرواية والقصة القصيرة بنوع خاص .

ذكرت الأنباء (16 ديسمبر 1983) أن هذا الأديب انتقل عن دنيانا إلى حيث يجب أن ينتهي كل انسان ، فتذكّرته الصحافة الوطنيّة ، وتحدّث عنه الأصدقاء ، واهتمّ به الدارسون مستعيدين جميعا ظروف نشأته وحياته ، وما أسهم به في مجال القصة القصيرة والرواية ، واللون الذي تميّز به في الكتابة ، وسجّل به مجرى ، صار يتمهّده العديد من كتّاب القصة في تونس .

ظهر البشير خريف في الوسط الأدبي التونسي ، بعد أن تقدمت به السنّ ، في حدود الأربعين تقريباً ، حين بدأت مجلة « الفكر » نشر رواية له بعنوان « إفلاس أو حبّك درباني » فأحدث بها لغطاً وضجيجاً ونقداً ، وتساؤلات من

أقصى اليمين الأدبي إلى أقصى يساره ، ذلك أنه كتبها بأسلوب سهل عاديّ ، فصيح لا محالة ، ولكنه ينتظم في كثير من الأحيان ، قوالب لغوية عامية تونسيّة معروفة ، وجعل حوارها كله بعامية عاصمة تونس ، لم تخل أحداثها من جرأة ـ جنسية أحياناً ـ لم يكن من السهل أن تمرّ دون تعليق ومراجعة أو نقد ، كان هذا في السنة الأولى لاستقلال تونس (1957) وجماهير الشعب خرجت من معركة طاحنة مع الاحتلال الفرنسي ، ظلّت مدة سبعين سنة ، مهدّدة في وجودها الوطني والقومي ، بكل عناصره ومقوماته الدينيّة والأخلاقية واللغوية ، يذكر مدير مجلة « الفكر » أنه عندما أخذ يقرأ فصل الرواية الأول على أسرة الفكر ، لاحظ الامتعاض والسخرية في وجوه الجميع ، وكان صاحبها حاضراً ، فاضطر إلى الانقطاع عن القراءة ، وبدافع ما ، قرأها ـ بمفرده ـ كاملة ، فاعجب بها ، وتحمّل نتيجة لذلك مسؤولية نشرها تباعاً ، ومسؤوليّة نقدها والإعتراض عليها أيضا .

وكما هو متوقّع ، فقد أحدث نشرها الكامل ، صراعاً بين وجهتي نظر ، واحدة تعترض على أسلوبها اللغوي ، الذي يعتمد اللهجة العامية في الحوار ، ولا يخلو السرد منها في

كثير من المواضع ، وهو أمر لا ينبغي الإقرار به فضلا عن تشجيعه ، لأكثر من سبب ، أحدها أنه يفقدنا ذلك التواصل الذي ينبغي أن يظل قائما مستمراً بين كل قارئي العربية ، حيثما كانوا ، ولا يستطيع أن يدعي أحد أن اللهجة التونسيّة ، يمكن أن تفهم بالكامل في كل البيئات العربية ، وأخرى ترى أن الأدب ينبغي أن يعتمد لغة الشعب ، لأنه المعنيّ بمضمون الكتابة أولاً وأخيراً ، بل إن هذه النظرة الأخيرة ، رأت في الرواية فاتحة عهد جديد لأدب واقعي ، تأخّر ظهوره في تونس ، بالقياس إلى كثير من الأقطار العربية الأخرى ، والذي يلفت النظر حقّا ، أن فئات من الانعزاليين التونسيين والذين ينادون بالأمة التونسيّة في مواجهة دعاة الأمة العربية ، رأوا في عمل البشير خريف ضالتّهم المنشودة ، فها هو يكشف لهم عن خصوصيات تونسيّة لا تلتقي مع الخصوصيات العربية الأخرى ، وأخذوا يردّدون هذا الكلام دون أن يهتمّ له العقلاء ، ولا الغالبيّة من جماهير الشعب التونسي العربي المسلم .

والذي يبدو ، أن البشير خريف ، لم يكن يفكر كثيراً في ناقديه ، ولا فيما قيل حوله ، إذ انصرف إلى أعماله ، يباشرها وينقّحها ، ويخرجها إلى الساحة تباعاً ، فقد أصدر

روايتين أخريين ، هما « برق الليل » و « الدقلة في عراجينها » ومجموعة قصصيّة بعنوان « مشموم الفلّ » ويقول المتصلون به أنه ترك أشياء أخرى منها مسرحية بعنوان « سوق البلاط » وهي كلها أعمال إن امتحنّاها ، وجدناها لا تخرج عن النهـج الفنّي ، الذي كتب به عمله الروائي الأول « حبّك درباني » .

بيد أن النظرة الهادئة ، لا بدّ أن تعترف بالدور الهام الذي قام به البشير خريف في سبيل إرساء رواية عربية بتونس ، إذ أن عمله الروائي الأول ، في منتصف الخمسينات (1957) ، كان بحقّ فاتحة عهد روائي جديد ، سنجده يتدعّم بروايات أخرى ، لكتّاب لم يكن يسمع بهم أحد ، امثال مصطفى الفارسي وعبد المجيد عطيّة ومحمد رشاد الحمـزاوي وغيرهم ، رغم أن محمود المسعدي كان روائيا معروفا ، منذ أن نشر روايته الرائعة « حدّث أبو هريرة قال » سنة 1939 بجريدة الزمان ، ولكن تأثيره في الأجيال الأدبيّة ، ظل محدوداً جداً ، للأسلوب المتفرّد الذي كتب به ، وللقضايا الفكريّة المجرّدة التي طرحها ، ورغم أن أول رواية تونسيّة ظهرت سنة 1906 ، للشيخ صالح السويسي القيراوني ، ولكنها رواية لا حظّ لها من العمل الفنّي القصصي الروائي ،

إلا الأحداث يتبع بعضها بعضا ، دون ترتيب فنّي محكم ، كما قضت بذلك أصول هذا الفن العظيم ، لذلك فانها لم تصلح أنموذجا يحتذى ، ويقتدي به الكتّاب ، فكان ظهور البشير خريف عاملاً هامًا ، حرك القرائح والإرادات ، لأن تنتج وأن تواصل الإنتاج القصصي ، حتّى تدعّم في مدّة قليلة نسبيًا ، وصار يمثل قطاعا له أهميته في حركة الأدب التونسي الحديث .

أهميّة البشير خريف تكمن في أنه كتب بلغة سهلة ، تخلو من أيّ تقعّر لغوي ، كان يحرص عليه كتّاب فترة الإحياء الأدبي ، في فترة ما قبل الثلاثينات بتونس ، وأنه حاول محاولة جادّة أن يعكس في أعماله الروائية والقصصيّة المختلفة ، خصائص كلاسيكيّات الرواية والقصة القصيرة ، كما تجلّت في آثار توفيق الحكيم ومحمود تيمور ، وبالطبع بلزاك الفرنسي وتشيخوف الروسي ، لأنه كان مهتمًا بالأدب العربي وبالأدب الفرنسي كذلك ، بل لم لا يقال ، أنه تأثّر بالحكيم تأثّر واضحاً ، في عاميّة أسلوب الحوار ، كما ظهر في روايته الأولى « عودة الروح » وكم أثّر الحكيم في أجيال وأجيال ، والأهم من كل ذلك ، أنه تناول البيئة التونسيّة القريبة ، فعالج وصف أحيائها وعاداتـها

وتقاليدها ، وغاص في نفسيات أشخاصها العاديين ، من ذوي العاهات والعاطلين عن العمل ، والطلاب من أعماق الريف إلى العاصمة ، والخدم السّود والبيض ، والمتبرّجات من النساء ، والقاعدات في أركان الدّور لا يبرحنها أبداً ، وتبرز قدرته في دقّة الوصف ، حتى لكأنك تشاهد فيلماً تسجيليّاً ، التقطه مصوّر محترف ، ومن هنا جاء انتشاره الواسع بين القرّاء التونسيين ، وأقبلت عليه الأجيال الجديدة ، تتابع ما يكاد ينقرض من معالم البيئة التونسيّة القديمة ، ومراسم عاداتها في الحوار والتفكير .

إن البشير خريف ، مرحلة مهمّة في حركة الأدب التونسي الحديث ، وإن المؤرخ الأدبي ، لا يستطيع أن يهمل ما أنجزه من عمل ، ليهيّء لهذه المرحلة التي يباشرها كتّاب تونس ، بكلّ حماسة وإخلاص .

شاعر الصّمت المرير

في سكون الدّجى سمعت فؤادي
يتغنّى مع الحياة النّديمه
مطمئنا في راحة وخشوع
يدفن اليأس وحده وغمومه
قال لي قولة الخبير يسلّي
خلّه كي يزيل غيومه
أنت يا شاعر سكرت بشعر
سكرة البحر حين يطوي خصيمه
فاتركن الشكاة والعجز واليأ
س ، فان الحياة ليست رحيمه

هذه أنّات شاعر ، رحل عنّا ، وعن الدنيا ، منذ سنوات بعيدة ، ولم يكن غريبا ألاّ يخلف كلاماً يثار حوله ، تنشره هذه الصحيفة أو تلك ، أو تنعقد له ندوة ، صغيرة أو كبيرة ، في هذا المجمع أو ذاك ، من مجامع الكلام المتعدّدة ، التي ترتكز في كل مدينة وقرية ، فقد كان علي بن هادية (1916 ـ

1987) طول مسيرة عمره ـ أليف الوحدة والصمت ، يلـوذ بهما ، طائعا مختاراً مرّة ، حين يأوي إلى نفسه ، يجمع شتاتها المبعثر ، في قصيدة أو مقال ، أو مجبراً مسيّراً مرّة أخرى ، حين تشتدّ به الظروف ، وتقسو عليه تصاريفها ، فيلزم ركنه ، يائسا متحسّراً ، لايبرحه حتّى يدعو إلى ذلك موجب من موجبات الحياة الثقيلة ، يتحدّث إليك ، خفيض الصوت والإشارة ، فتحسبه يأتي وجها من وجوه الصمت ، أو حركة من حركات التأمل ، تستغرق ملهمًا أو نابغاً أو شاعراً ويعبر بك ، خفيف الخطو والقامة ، فلا تجد منه غير طيف ابتسامة ، هي كل تحيّته ، ومع ذلك فهو الجريء إذا اعتلى منبر الإنشاد ، وهو الحازم إذا أقبل على عمل من الأعمال ، وهو الطموح إلى أبعد غايات الطموح ، إذ قرّر منذ نشأته الأولى ، أن يكون شاعراً ، وأن يهب كل ما فـي طاقته ، ليسجّل في عالم الكلمة الرفيعة ، نبض أحاسيسه ، ورؤى خياله ، ولون تجربته في الحياة ، تاركا للآخريـن معنى ، يبرر به رحلته في هذا الوجود ، ولد بعاصمـة الأغالبة ، فعني به والده عناية خاصة ، إذ هو وحيد العائلة ، فحفظ القرآن ، ودرس بالمدرسة الابتدائية ، ثم المدرسة القرآنية ، التي كانت تمثل في تونس ، الردّ الوطني للوجود القومي ، الذي كافح كل أنواع الاستلاب والتغريب ، الذي

كانت تشيعه البرامج التعليميّة الفرنسيّة في ذلك الوقت ، ثمّ انتقل إلى معهد ترشيح المعلمين بالعاصمة ، حيث تخرّج معلّما ، ويظهر أن والده كان على شيء من الثقافة الأدبية ، فكان يتتبّع عدداً من الصحف التونسيّة والمجلات الشرقيّة ، ويكنّ إعجاباً كبيراً لمصلحي الشرق وأدبائه ، أمثال محمد عبده وجمال الدين الافغاني ، والشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وجميل صدقي الزهاوي ومعروف الروصافي ، ولذلك فقد وجد الفتى علي بن هادية نفسه ، في وسط أدبي ، فدأب على المطالعة منذ الصغر ، ومحاولة اقتفاء تلك الآثار الشعرية ، التي كانت تملأ الساحة الثقافيّة في ذلك الوقت ، ومما جعله يمعن في هذا الاتجاه ، ويتعلق به كل التعلق ، إلى آخر لحظة في حياته ، ما كان يشيع في البيئة القيروانيّة ، من حرص على التراث الديني والأدبي ، ومن رسوخ التقاليد الأدبيّة والشعرية فيها ، واستمرارها في كل الأجيال المتعاقبة ، قديمة كانت أو حديثة ، وما كان يقوم من منافسة حميدة بينه وبعض أترابه من شعراء الشباب ، أمثال الشاعر النابغ محمد الفائز القيرواني .

ولعل أهم عامل أثّر في شخصه وفي تكوينه الشعري ، وملك عليه إعجابه كله ، هو صلته بالشاعر المرحوم أبي

الحسن بن شعبان ، الذي ارتبط به في قاعة الدرس بمعهد « ترشيح المعلمين » ورعايته لموهبته الشعرية ، وهي تتفتّح شيئا فشيئا ، ثمّ استمرار تلك الصلة إلى ما بعد ذلك ، حيث وجد منه العون والتأييد ، ممّا لاغني عنه لأيّ شاعر ، لا يزال يخطو خطواته الأولى ، ومما يجسّم تلك الصلة الوثيقة بين الأستاذ والتلميذ ، قيام علي بن هادية على ديوان (أبي الحسن) يرعاه ويحقّقه ويعدّه للنشر ، ولكنّه يرحل قبل أن يكمل وفاءه ، فيرى النور ، فعسى أن تحقق إحدى دور النشر ، أمنية الشاعرين وتمكّن القراء من الإطلاع على تراث شعري ، ظلّ صاحبه فترة طويلة يواكب الأحداث ، ويسهم فيها بالقدر الذي تهيّأ له ، واستعدّ له المجتمع لتقبله .

وضرب علي بن هادية ، في الآفاق ، فدرّس في بلدة « قربة » وأعجب بمناخها المعتدل ، وبحرها الهادئ ، وانتقل الى قرية « سمنجة » وجاب عدداً آخر من القرى ، القريب منها والنائي ، وعرف « تبرسق » لفترة طويلة ، وكوّن له هناك صلات تربوية وطيدة لا تنفصم ، مستقرا في النهاية بالعاصمة ، ورغم أن الشاعر رسخت قدمه في مهنته التعليميّة ، ووجد في بعض الأحيان ، شيئا من الوفاء لدى عدد من تلاميذه ، المنتشرين في كل مكان ، مما كان له أثر

طيب في نفسه ، وعزاء وسلوى ، أمام ما كان يجابه من أعباء وتكاليف مختلفة . فقد كان يئنّ بقسوة من محاولة التوفيق بين العمل الأدبي والشعري ، الذي كان يأخذ عليه فكره ونفسه ، وبين العمل التّربوي ، الذي كان يكبّله بتراتيب لا تحتملها نفسه الحسّاسة ، ومشاعره المرهفة ، وهكذا أخضع لهذه الثنائية طوال حياته ، ممزّق النفس والقلب ، مما ولّد في نفسه عقدة اضطهاد لم يبرأ منها أبداً ، وأوجد لديه حساسيّة زائدة ، يعرفها كل من تعرّض لمثلها من المربّين الأدباء ، حتّى أصبح كتل أعصاب مجهدة ، وحطاماً من قلب تعرّض لأكثر من صدمة ، كانت أخيرتها هي القاضية . فقد التحق بالقيروان ليشارك في أربعينيّة صديق الطفولة الدكتور حمدة العواني ، وبدار الثقافة أخذ ينشد رثاءه لصديقه الحميم ، ولكنه لم يكمل إنشاده إذ تهاوى على مقعده ، حاولوا إسعافه ولكنه أبى إلا الرحيل ، وظل صوته الرقيق الشجيّ ، يرددِ بين الجنبات :

نبأ الموت بالأسى قد دهاني
ولهيب الفراق رجّ كياني
مات خلّ الصبا فوالهف نفسي
خطفته المنون قبل الأوان

مات من شيّد الحياة وأضحى

علماً في مدينة القيروان

ويح نفسي من الفجيعة إني

في حساسيتي رقيق الجنان

ويح نفسي فالرزء جد عظيم

في ظروف لم تتسم بالتواني

فتعالى البكاء من كل صوب

وتوالى النّحيب عند الأذانِ

الشيخ الذي طوّقه الصمت

أنا مؤمن شديد الايمان ، بان التاريخ الحقيقي لأي شعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم أو اي حضارة من حضارات هذا العالم ، في قديم الزمن وحديثه ، إنما هو نتاج قرائح المبدعين ، من كتّاب وفنّانين ، ومفكّرين وشعراء ، فهم الذين يبشرون بالقيم والأصول ، وهم الذين يرسمـون للمجتمع ، طرق تحوّله وتطوره ، وبالتّالي يحدّدون له الشخصيّة ، التي يتميّز بها عن غيره من مجتمعات الأرض ، ومن هنا فان كلّ كلمة تكتب ، وكل رأي يسجّل ، وكلّ عمل إبداعي ، تعكسه لوحة ، أو نوتة أو جدار ، إنما هو تدوين وتجذير في آن ، للجهود الخلاّقة في المجتمع والشعـب والأمة ، وهي آخر ما يتبقّى بعد أن يسود الصمت ويعمّ الخراب ، لذلك فان الشعوب الحيّة على مدى التاريخ ، تعتني دائماً بمبدعيها ، وبالموهوبين الممتازين من أبنائها ، فتبرز مآثرهم ، وتنشر ما انطوى من آثار إبداعهم ، وترفع شأنهم بين الأجيال باستمرار .

لقد عرفت تونس ، في مراحل تاريخها المتعاقبة ،

أصنافا من العلماء ، والكتّاب وأهل الإصلاح ، وأصحاب المعرفة والإبداع ما يجعل لها شأنا كبيرا ، في وسط أمتها العربية المجيدة ، ويرفع لها منزلة محترمة بين كل الشعوب ، وإذا كان العديد من أولئك الرجال الأعلام ، قد حظي ببعض العناية ، ولقي من الدارسين والنقاد ، ما هو جدير به ، أو قريب منه ، فانّ عدداً آخر - وهو كثير - مازال ينتظر ، ومنهم بلا جدال الشيخ محمود الباجي ، هذا الذي رحل عنّا منذ أيام (شهر أوت 1987) رحلته الأبديّة ، التي ينتهي إليها كل حيّ من بني الإنسان ، فقد عاش الرجل طويلا ، حتّى تجاوز الثمانين ، وكتب خلالها الكثير الذي لا يحصى ، من المقالات والدراسات والبحوث ،ومع ذلك ظل مطوّقا بالصمت ، كأنه لم يخدم الساحة الأدبية والثقافية وكأنه لم يغش المجامع والنوادي ، محاضراً قديراً و خطيبا جهيراً ، أنا أدرك أن همم الكثير من الباحثين والدارسين ، تتجّه منذ سنوات لتحقيق تراثنا ، والتعريف بشخصياتنا الأدبية والفكريّة ، وتنزيلهم المنزلة التي يستحقّون ، وقد حققوا في سبيل ذلك الكثير ، الذي يدعو بحق إلى الثناء والتنويه ، إلا أني مع ذلك ، استغرب أن يتجاوز الشيخ محمود الباجي ، هذا التجاوز الذي سوف يظل بحاجة إلى تفسير .

والشيخ محمود الباجي رجل متعدّد المواهب ، فهو الأديب والصحفي ، وهو الشاعر الكاتب ، وهو رجل القانون القدير ، وهو الخطيب المصقع ، من المعدودين في الوطن العربي ، درس بجامع الزيتونة ، وفي رحابه اتصل بالشابي وخريّف والمهيدي ، وابن خالته محمد الحليوي القيرواني ، ونشط معهم في النوادي الأدبيّة ، كالخلدونيّة والصادقيّة والشبّان المسلمين ، ودرس الحقوق ، وبرز في المحاكم قاضياً مشهوراً ، غير أن منصبه هذا ، لم يحل بينه وبين الكتابة ، فاستمرّ يكتب بلا انقطاع ، حتى توقف القلم بين أنامله ، في أخريات أيّامه .

شاهدت الشيخ محمود الباجي ، لأول مرّة في أواسط الخمسينات ، وأنا طالب بجامع الزيتونة ، وكانت فترة نشاط أدبي وثقافي عجيبة بحق ، فقد كانت الجمعيات والنوادي الأدبيّة والثقافية ، تعجّ بالمحاضرات والندوات ، لم أجد ما يشبهها إلى حدّ الآن ، كان الشيخ يحاضر عن إحدى الشخصيات الأدبية ـ وأظنه ابن قيّم الجوزيّة ـ وكانت قاعة المحاضرات صاخية السمع بجمهورها الكثيف ، الذي أقبل من كل صوب ، فكان صوت الشيخ يملأ القاعة ، جهْوريّا بليغا واضحاً ، كأنه أحد خطباء ، روما العظام أو كأنه أحد

خطباء الأسواق العربية الشهيرة ، فكنّا نعجب لفصاحة الرجل وبلاغته ، وحسن تنغيمه للجملة ، كأنه يرتلها ترتيلا ، ولمّا أقبل عليه الطلاب بالسؤال ، استطرد إلى موضوعات جديدة ، لخصّ بها ما يتوفر عليه من زاد علمي ، نادر بين أهل الاختصاص ، وينبغي أن أذكر هنا ، أني شهدت موقفا بديعاً للرجل ، جعلني أكبره باستمرار فقد كان الشيخ جالساً بين الحضور ، يستمع كما يستمع غيره ، إلى هؤلاء الاساتذة المعدودين الذين أخذوا يشرحون آراءهم في قضيّة من قضايا الثقافة ، وفجأة يطلب رئيس الندوة من الشيخ محمود أن يتقدم ويدلي برأيه ، وقف الشيخ معتذراً ، ولكن اعتذاره تبدّد وسط ضجيج التصفيق ، فارتقى المنصة وأخذ يتحدث بتؤدة كانه يستجمع آراءه ، ثم انطلق يحلّل القضيّة ويفصلها ، ويقارن بين جزئياتها ، مستشهداً بهذا النص القرآني ، أو ذاك النبويّ ، أو ذاك الشعري ، حتّى قال البعض ، ليتهم اقتصروا على الشيخ الباجي .

إنّ أسفنا على رحيل الشيخ عميق وكبير ، لأنه أحد رموز ثقافتنا العربية الإسلاميّة ، ولأنه خدمها شاباً وكهلاً وشيخاً ، خدمة ممتازة ، قلّ نظيرها بين مثقفينا ، ولكن هذا الأسف سوف يتعاظم ، إن لم ننهض بواجب الوفاء والعرفان

بالجميل ، فنجمع آثاره وننشرها ، ونقدّم تراثه إلى الأجيال من شبابنا ، فنؤدّي بذلك عملا جليلا ، كان يودّ أن ينجزه في حياته .

مأساة شاعر

أمشي على الأشكواك في ليل الحياة بلا رفيق
متلمّسا سبل الصباح ولا سبيل إلى شروق
ظلماء في قفر كئيب لا تلوح بها البروق
وحدي بها في حيرة متسائلا : أين الطريق ؟
فاذا الصدى نفسي وأسجاف الدجنة في ازدحام
فقبعت في نفسي وليس بها سوى الألم المذيب
وسألتها يا نفس قد كبلت بأقدامي الدروب ؟
وسألت كل الكون عن صبحي ولكن لا يجيب
إني ظللت وقد ضجرت فأين إصباحي الحبيب ؟
آه فقد مات الرجاء والروح مشبوب الأوام

قد تعرف صاحب هذه القطعة الشعرية أو لا تعرفه ، ولكن المؤكّد أن بعضاً من اخباره قد تناهى إليك ، وأنك حاولت - مهما كانت دوافعك - أن تتعرف إلى المزيد منها للنفاذ إلى ما يكمن خلفها من وقائع معينة ، تشير دلالات عديدة إلى أن ترتيبها خضع لتدبير محكم ، وأن يداً غامضة

امتدّت في بعض فترات الاضطراب الاجتماعي والسياسي التي عرفتها تونس ، لتضطهد منور صمادح الشاعر ، وأن تخرجه عن أطواره السليمة العادية ، إلى أطوار أخرى اضطربت فيها مقاييس النفس والعقل ، واختلط فيها الحقيقي بالخيالي ، فانقلبت بذلك حياته إلى عذاب وبؤس ، وإلى شقاء متصل لا ينتهي ، إن الوقت قد حان لكشف هذا اللغز ، ليدرك المجتمع الثقافي وغير الثقافي ، في تونس وغير تونس ، أن كل تجاوز ينبغي أن يخضع للمساءلة ، وأن القانون هو المرجع في كل الأحول .

إن إثارة القضية في هذا الوقت بالذات ، بعد السابع من نوفمبر ، والوعد المؤكد من قائد العهد الجديد ، بأن لا سلطان إلا لدولة القانون والمؤسسات لها أكثر من دلالة ، لأن صاحبها لم يكن مواطنا عاديًا كغيره من الملايين وحسب ، وإنما هو كاتب وشاعر وفنّان ، قدّم الكثير للأدب والثقافة ، وناضل من موقعه ذاك ، في حركة التحرير الوطني ، والذين عاصروه وعرفوه يشهدون له بذلك ، كنّا طلابا بالزيتونة في بواكيرنا الأولى ، والساحات تغلي كالمرجل نقمة على المستعمر وأذنابه ، والاجتماعات تنعقد والمسيرات تنتظم ، فكان منور صمادح صوتها في كل آن ،

ينشد فيطيل الإنشاد ويتحدّث فلا يمل الحديث ، وكان ذا جسارة غير عادية ، وصاحب تحديات عجيبة ، فقدر رأيته مرّة يخترق صفوف مظاهرة كبرى في ساحة القصبــة بالعاصمة ، وترفعه أيدي الشباب في مواجهة نافذة من كان يسمي « الوزير الأكبر » ثم ينشد قصيداً حماسيًا ، هاجم فيه الطغاة والاستعمار وعملاءه ، داعيا إلى التضحيّة في سبيل تونس واستقلالها وعزّتها ، ولقد ألفته الجماهير في كل ساح وناد ، حتى غدا شخصيّة وطنيّة عموميّة ، اسمها على كل لسان ، ومع ذلك فقد كان ذا بؤس وفقر واضحين ، تعوّد الناس رؤيته في كل الفصول ، بجبّته الحمراء الحائلة ، وحذائه الضخم الذي كان ولا شك من مخلّفات الحرب الثّانية الكبرى ، وتعوّد طلاب الزيتونة رؤيته بينهم مقيما ، ورغم أنه كان يساهم في تحرير بعض الصحف ، كجريدة تونس لزين العابدين السنوسي ، إلا أن أحواله المادية لم تعتــدل أبداً .

وبالطبع فان هذه وضعية مؤقتة ، لم تزد صاحبها إلاّ ثباتا وصلابة ، وإلا حقداً على المستعمر الذي اضطهد الأحرار وتتبّعهم بكل عنف ، فما أن أعلن الاستقلال الوطني ، حتّى رفع عن شاعرنا الكابوس ، واحتل المكانة التي هو بهـا

جدير ، فتصدر المجالس والندوات والجمعيات ، وانفسحت أمامه الفرص الكريمة ، يساهم فيها بألوان الإبداع الشعري والنثري ، الذي اقتضته ظروف التحوّلات الجديدة ، فكان شاعر المرحلة الاستقلاليّة دون منازع ، ولكن شيئا ما بدأ يلوح في الأفق ، فقد قلّ ظهوره في هذا الحفل أو ذاك ، وبدأ الهمس في الزوايا بأن الرجل لم يعد مرغوباً فيه ، وأنه أصبح ثقيلا على المجالس الرسميّة والشبيهة بها ، ومن جهته فقد أخذ يدافع عن نفسه ، ويعمل لسانه بالعيب المباشر وغير المباشر ، في هذا المسؤول المقرّب ، أو ذاك المتسلّق ، وكان يرغب دائما في لقاء مكاشفة وصراحة مع الرجل الأول الذي يمسك بكل زمام الأمور ، ولكن ذلك لم يتحقق أبداً ، وفجأة وردت الأخبار بأن منور صمادح قدلجأ إلى الجزائر ، وانه قد وجد حظوة خاصة ، تليق بشاعر تغنّى ببطولات الجزائر ، وما قدمه أبناؤها من تضحيات في سبيل الحرية والاستقلال ، ثم ما عتّمت أن وردت أخبار غامضة ، تفيد بأن صاحبنا يتعرض لمتاعب وصعاب ، وأن حنيناً جارفا يشدّه إلى وطنه تونس ، وبالفعل عاد إلى أرض الوطن ، عسى أن تكون الظروف قد تغيّرت ، ولكنّه كان واهماً ، فقد ازدادت المطاردة شدة ، ودخل اللعبة من كان متفرجا ، ولم يمدّ اليه أحد يداً ، ورغم ذلك عظم نشاطه الأدبي ، لا يحضر تجمّعا

أدبيًا إلا ألقى فيه قصيدا جديداً ، يتلظّى حدّةً وسخطاً ، ولا تصدر صفحة أدبيّة إلا وله فيها قصيد أو نشيد ، ينزف ألماً وعذاباً ، كل ذلك ووضعه المادي سيء إلى أبعد الحدود ، يضطرّه أحياناً إلى طلب الإعانة البسيطة ، من الذين يعرفهم ومن الذين لا يعرفهم ، ولما ضاقت به سبل الرزق والعيش ، وضاق بصمت الجدران من حوله ، تفجّرت نفسه بقصائد عنيفة إلى أبعد حدود العنف ، ولمّا كان يعلم أن هذه القصائد لا يمكن أن تنشر ، فقد أخذ يتنقّل بين النوادي والمقاهي والحانات ، ينشدها للذين يستمعون و الذين لا يستمعون ، ولكنه ما إن يستدرجهم إلى قصيد له معروف ، يهاجم فيه مباشرة الزعيم الأوحد ، حتّى يتفرّقوا من حوله واحداً إثــر واحد ، والذي يؤسف أن هذا القصيد ضاع في الهواء ، أو فلنقل أن بعض الرّواة ممن نعرف من الأدباء ، يحبّ أن يستأثر به وحده ، وألاّ ينشره أو يطلع عليه غيره ، إلا في وقت آخر ، قد يكون قريبا أو بعيداً ، وعموما فكل ماأذكر منه هو مطلعه ، وهو كالآتي :

عهدي به جداً فصار مزاحا

بدأ الضحيّة وانتهي سفّاحا

وتوتّر الموقف وازدادت المطاردة ، فكان يظهر مرّة

ويختفي أخرى ، وذات صباح أو مساء ، شاع في الأوساط الأدبيّة والثقافيّة أن منور صمادح قد اعتقل ، ثمّ مضت مدة ، قيل بعدها إنه أحيل على مستشفى الرازي للأمراض النفسية والعقليّة و حينما أوشك الناس على النسيان ، ظهر في الشوارع حافي القدمين ، رثّ اللباس ، يتحدّث حديثا غير مسؤول ، أو يأتي من الحركات ما ينبئ بأن الرجل فقد رشده ..

ومازال منور صمادح مجنونا .

مصطفى الفارسي في مرآة النقد

نظم المركز الثقافي لبلدية تونس (أول فيفري 1987) لقاء أدبيًا مع مصطفى الفارسي ، تولى فيه توفيق بكار والمنجي الشملي ، التعريف بأدب الكاتب وفكره وحياته ، تمهيدا لحوار ثريّ بين الفارسي وجمهور من المثقفين ، استطاعوا بحق ، أن يبرهنوا عن مدى مواكبتهم للإنتاج الأدبي التونسي ، وقدرتهم على استنباط الآراء والمواقف والمزالق ، التي يحفل بها هذا الأثر أو ذاك ، فكان الجدل الذي نريد بين كاتب منعزل أو غير منعزل ، وبين قراء ينتظرون المواجهة .

قدّم المنجي الشملي صديقه الفارسي ، بكلمات منتقاة ، عرف بها دائما في كل أحواله ، ركّزها على الأطوار التي مرّت بها حياة الكاتب ، منذ كان بصفاقس ، تلميذا بالثانوي ، يقدم تجاربه الأدبية لمدرّسيه وأثناء إقامته بباريس ، يدرس العربية ، وآدابها ، ساعيا بجهد ، لأن يستوعب ما يحدث حوله من ألوان الفن والابداع ، وبعد أن رجع إلى أرض الوطن ، وقد تمهّد الطريق أمامه ، فاحترف

الكتابة ، وأخذ ينشئ فيها ، ما نعرفه له من ألوان ، في القصة القصيرة والرواية ، والمسرحيّة والمقال ، صورة الفارسي في مرآة الشملي كانت زاهية ، مكتملة النّسب والأبعاد ، خطًا ولوناً وفضاء ، فهي جميلة كما ترى ، وكما نحب أن نرى ، ولكنها تفقد تأثيرها في النفوس ، حين نقارنها بصور سارتروكامو وبريفار ، وبروست وتوفيق الحكيم ، هؤلاء الكبار الذين أثروا الثقافة المعاصرة ، ثراء لا يحدّ ، كما حاول الشملي أن يفعل ذلك ، ذلك لأن تجربة الفارسي الأدبيّة تجربة من نوع خاص ، تحكمها بيئة معيّنة ، لها مشاكلها وقضاياها المحدّدة ، وتحكمها ثقافة ، ذات نتوءات عربيّة وفرنسيّة من الصعب جدا ، صهرها في بوتقة واحدة ، أو رؤية متكاملة ، تنتظمها آثار ، يهتمّ لها القريب والبعيد من بني الانسان .

إن الفارسي - كما أعرف - لا يعتبر نفسه مدرسة أدبية ، ولا يطمح إلى أن يكون نداً ، لواحد من الأسماء التي ذكرنا ، غاية ما يريد ، أن يكتب وأن يعبّر عمّا تمتلئ به نفسه ، من ألوان المعاني والتجارب ، وأن يصوّر ما يحسّ أنه يقرّبه إلى جماهيرنا ، الظامئة إلى الأدب والثقافة ، أما زمن المقارنة والموازنة ، فلم يأت بعد ، فمازال الكثير الذي لم يقله ،

ومازال البون شاسعاً بينه وبين خط الوصول ، في الفنّ والحياة معاً ، إن تجربته الأدبيّة والإبداعيّة ، لم تكتمل بعد ، فقد رأيناه في رواية « حركات » ينتهج نهجاً جديداً في الكتابة ، لم نعرفه في آثاره الأدبيّة الأخرى ، جمع فيه كما قال الشملي بحقّ ، فنوناً من الشعر والقصة والفلسفة والمسرح ، وأن يتوفّق باقتدار إلى صوغها صياغة ، تنبئ عن تمكن وأصالة ، لا غبار عليهما كما يقولون . وعندما درست هذه الرواية ، ذكرت في كتابي ـ من أدب الرواية في تونس ـ أنها أول رواية واقعيّة في الأدب التونسي ، وأنها البداية الحقيقيّة لفن الرواية الفارسي ، متجاوزاً عن قصد رواية « المنعرج » لأني مازلت أعتبرها رواية ضعيفة لضبابيتها الرومانيسّة ، ولشيء من التناقض في طبيعة بعض أشخاصها ، وأشياء أخرى ذكرتها مفصلة في كتابي المذكور ، لذلك فان الفارسي يقتحم الآن مرحلة جديدة ، في عالم الكتابة الروائية ، وباستطاعته أن ينتج الجميل والمبدع والجديد ، ولعله بعد ذلك ، يدخل بنا في تجارب أخرى ، وفي مراحل ، يأخذ بعضها برقاب بعض .

لا أدري لماذا يضيق صدر الفارسي بالنقد والنقاد ، وكنت أحسبه سمحاً كريماً ، فقد انتقد أحد المناقشين رواية

« المنعرج » مهلهلاً بناءها ومضمونها في صراحة ووضوح جميلين ، ولكن الفارسي انتفض ، انتفاضة العصفور الذي بلّله القطر ، يتهدّد النقد والنقاد ، مشيراً إلى أن النقد عالة على الأدب ، بل إن الناقد - أي ناقد - ليس إلا تلك الدّويبة المعروفة ، التي تعيش على امتصاص دم الجسم والرأس ، وهو موقف من مصطفى لا أحبّه له ، لأنه يعلم أو ينبغي له أن يعلم ، أن النقد ليس هو ذاك ، ولم يكن عالة قطّ ، في عالم الأدب ، قديمه وحديثه ، فهو إبداع على الحقيقة ، وهو الإنصاف الذي يعطي الكاتبين أقدارهم ، وينزّلهم المنزلة التي هم بها جديرون ، بل هو الاكتشاف الباهر لما خفي من جواهر النصوص الأدبيّة ، حين تتحكّم النوازع والأهواء ، فتبعد هذا ، وتدني ذاك ، وتقرّر ما لا ينبغي أن تقرر ، فبعد عشرة قرون كاملة ، استطاع الاستاذ عبّاس محمود العقّاد أن يزيح سجف النسيان عن ابن الرومي ، وأن يقدمه الينا في صورته الحيّة الشاملة ، شاعراً ممتازاً ، كأروع ما يكون الامتياز ، سموّ فنّ ، ودقة تصوير ، وروعة أداء ، ورهافة إحساس ، وعرف الناس يومها ، أن الوأد الأدبي قد يطول ، ولكن النقد الحقيقي يضع له حداً ، بل إن انطلاقة الكثير من أدبائنا المعاصرين ، اعتمدت بالأساس رأي النقد والنقاد ، فهذا الدكتور طه حسين ، يسعى إليه توفيق الحكيم ،

متردّدا حائرا بمسرحية « أهل الكهف » فيقرأها ويعجب بها ويشجّعه على نشرها ، ثمّ يكتب لها مقدمة ، يبشر فيها بمولد فنّ جديد في الأدب العربي ، وبميلاد فنّان ممتاز ، سوف يكون له شأن وأي شأن ، وهذا رجاء النقاش ، يسعى إليه الطيب صالح بروايته « موسم الهجرة إلى الشمال » فيقرأها ويكتب عنها بصحف ومجلات الهلال التي كان يشرف عليها ، ثم ينشرها في سلسلة روايات الهلال ، وبذلك انطلق توفيق الحكيم ، انطلاقته الكبيرة وانطلق الطيب صالح انطلاقته التي مازالت أصداؤها تتردّد هنا وهناك .

نضال قلم

عندما تأسست جريدة « الصباح » في بداية الخمسينات ، كانت تونس تتأهّب لخوض مغامرتها الوطنية الكبرى ، يحدوها طموح قويّ لإثبات جدارتها بالحياة ، وحقها في تقرير مصير ، ليس لأحد عليه وصاية أو سلطان ، وللإبداع نموذجها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي تختاره وتريد ، وفق معطيات من التاريخ ، وظروف من طبيعة الأرض والعمران ، تشدّها إلى هذه الكتلة البشريّة العربيّة ، المتوزّعة مشرقاً ومغرباً ، فكان حتماً عليها ـ وهي تتقدّم في ثبات وعزم ـ أن تكشف النقاب عن قدراتها الكامنة ، وأن تبرز الروح العميق الذي تتحرك به طاقات أبنائها ، عبر كل العصور ، بل أن تعلن للرأي العام العالمي ، أن لها من مسؤولية الإرادة والتجديد والتحديث ، ما يؤهّلها لمباشرة سيادتها بكل جدارة واقتدار ، ومن هنا كان الحمل على « الصباح » ثقيلا ، وقد نهضت به كأروع ما يكون النهوض ، فجدّدت الأساليب الصحفيّة السائدة ، تبويباً وتحريراً وإخراجاً ، وقدّمت بوعي لقرائها حيثما كانوا ، حقيقة الوضع السياسي التونسي ، وأحوال الوضع الاجتماعي

والثقافي كما يتحقق في قلب الواقع الحيّ ، وكما تبدعه جماهيرنا المثقفة والعاملة ، لا كما تزعمه الأبواق الصدئة التي ركّزها الاستعمار ، هنا وهناك ، وبدأ الناسُ يقرأون فنوناً من الكتابة ، تخلو من الهرج وألوان الطلاء ، حول موضوعات هي من صميم حياتهم اليوميّة ، ومن الحياة التي تضطرب من حولهم ، قريباً وبعيداً ، وتوفّقت إلى استقطاب أقلام جيّدة وجديدة في آن معا ، كمحمود المسعدي الذي كتب افتتاحية العدد الأول منها ، فاعربت الصباح بذلك عن توجّهها الصحفي الجاد ، القائم على احترام الرأي المبتكر ، والفكرة العميقة ، واحتضان ألوان الابداع المختلفة ، التي ثقّفتها الدراسة وزكّاها التجريب والممارسة .

ومن الحق أن هذا العمل الجديد الهام ، اضطلع بأعبائه رجلان ، أحدهما الاستاذ الحبيب شيخ روحه ، عميد الصباح بلا منازع ، الذي استطاع بصبره الدؤوب ، وحنكته الإدارية الفائقة ، وعلاقاته الإنسانيّة الممتازة ، أن يجعله يستمر ويتواصل ويتنوّع ، هذا التنوع الذي نشاهده اليوم ، يبلغ مستوى يمكن مقارنته بمؤسسات صحفية عتيدة ، في أراض بعيدة وقريبة ، وثانيهما هو المرحوم الأستاذ الهادي العبيدي ، ذلك الكاتب الذي تنوّعت مواهبه في كل اتجاه ،

فهو رجل المسرح الرائد ، وهو شاعر الأغنية الراقية ، وهو الناقد الأدبي الصريح ، وهو الصحفي وهو المعلق السياسي الذي يواكب الحدث الهام ، وطنيا وقوميا وعالميًا ، وقد لعب دوراً هامًا في « الصباح » تجدون آثاره في هذا الخط الفكري الذي تباشرونه يوميًا على صفحاتها ، وترونه في الأقلام التي انتخبها ، والتي مازالت وفيّة لذكراه ، وللدّرس البليغ الذي كان يتعقّبهم به يوماً بعد يوم ، على مدى أكثر من خمس وعشرين سنة .

وسط هذه المؤسسة الصحفية الكبرى ، ووسط هذا المناخ الفكري والاجتماعي والسياسي ، برز عبد الجليل دمّق الذي يلتئم اليوم هذا المجمع الشاب لإكرامه وتقديره ، ولم يكن بروزه بهذا الحجم الكبير في وجدان قرائه ، بالأمر السهل الميسور ، فقد كان الاستاذ الهادي العبيدي ، متشدّدا إلى أبعد الحدود ، لا يعجبه العجب حتّى الصيام في رجب كما يقال ، تنتدب الجريدة صحفيًا فيمتحنه ويقسو عليه ، ويتعقب عمله كلمة فكلمة ، وهو جدّ سعيد إن تركه بغير عقاب ، من يد أو لسان ، والواقع أن الرجل يقدّس الكلمة الجيدة ، ويحترم الكاتب الذي يحترم قراءه ، ويعتز دائما برعاية للموهوبين ، ولكنّه يأخذهم أخذاً في غير ليـن

أو مجاملة ، حتّى يستقيموا على طريق العمل الصحافي القويم ، وقد ينبغي أن أشير هنا إلى أن قلة القلة هي التي ثبتت لامتحان الهادي العبيدي ، واستطاعت أن تشق طريقها بكدّ واجتهاد وصبر ، يدعو إلى الإعجاب حقّا ، فمنذ أن التحق عبد الجليل دمق بالصباح في أواخر الخمسينات ، وهو ينتقل من موقع صحفيّ إلى آخر ، دون ملل أو ضجر ، بدءا من ذلك التحرير الموجز لخبر محليّ ، أو كتابة فصل قصير ، عن قضيّة اجتماعيّة أو ثقافيّة ، أو تنسيق لرسائل القراء في الجهات المختلفة ، أو إجراء تحقيق حول موضوع راهن ، وصولا إلى هذا المدى الذي يتوفّر عليه اليوم ، والذي نعتقد أنه حقق به طموحاً ، كان دوماً من أحبّ الأشياء إلى قلبه ، فالرجل كما ترون هو خلاصة تجربة صعبة ، ونتاج عمل سويّ على مهل ، وهو جهد أصيل قامت فيه الإرادة بدورها الفعّال ، وقام فيه تمكين القدرة ، من الوصول إلى تحقيق نموذج متصوّر في الكتابة الصحفيّة وقد تعجبون أن التكوين الأساسي لعبد الجليل دمّق اقتصادي بالأساس ، ولكنه مع ذلك انصرف عن مردوده الإداري ، عشقا للصحافة وحبّا للكلمة ، وتقديراً لدورها الخطير في المجتمع والحياة ، ولعلكم حين تتمعّنون فيما يكتبه اليوم وقبل اليوم ، تكتشفون في إيقاع أسلوبه وفي تقطيع جمله وفي صوغ

عباراته سرّ ذلك التكوين الأصلي ، فهو دقيق واضح ، موجز في غير إخلال ، يشرح لك القضيّة السياسية أو الاجتماعية أو الإخبارية ، كأنه يحدثك عن نظرية اقتصادية ، لا لفّ فيها ولا دوران .

إني أقدر المناسبة التي يكرم فيها عبد الجليل دمّق ، وأقدر شباب الأدباء الذين أصرّوا على لقائه ، والحديث إليه ، وإنه لاقتراح منهم جميل ، فهو الاعتراف للرجل بانه ناضل بالقلم منذ يفاعته الأولى ، حين كان مثلكم شاباً ، وأنه كان صادقا في توجّهه ، لا يعبأ بما يكتنف عمله من مخاطر الطريق ، وما قد يحدث له من عقبات يدفعها غالية ، على حساب المستقبل المنظور وغير المنظور ، إن العيش من القلم كما تعلمون ، عسير أي عسر ، ومغامرة أي مغامرة ، ولكن متى كانت العزائم الصادقة ، تتراجع أمام اختياراتها ، وتنخذل أمام مسؤولية الحياة والنفس والمجتمع ؟ إنه الوفاء إذن هذا الذي يجمعكم الآن بعبد الجليل دمّق ، وهو الشهادة له في آن ، بأنه خدم تونس العزيزة ، بما تمثّله من قيـــم خالدة ، أروع الخدمات ، فقد دافع بكل قوة عن مكتسباتها الثقافيّة والحضاريّة ، وندّد دوماً بأنواع التلبيس والمغالطة ، التي حاولت تشويه الوجه الأصيل لتونس العربيّة

المسلمة ، وهل أبلغ من هذا االتزام الدقيق بقضايا التعريب والعروبة ؟ وبقضيّة فلسطين على وجه الخصوص ؟ فقد استطاع والحق يقال ، أن يجعل من هذه القضايا هاجسه الشخصي ، هاجس الشباب من أمثالكم ، وهو لايني يكتب ويعيد كأن الدعوة لم تبلغ الأسماع بعد ، والذي أعرفه من وجه آخر ، عن صديقي عبد الجليل دمّق ، أنه يحترم زملاءه الذين يعملون معه في دار الصباح ، وهو لا يتدخّل في أعمالهم إلاّ بقدر محدود ، حين يمسّ الأمر قضيّة جوهريّة ينبغي أن تحترم دائما ، كنت أشرف على الصفحة الأدبيّة الأسبوعيّة للصباح ، فنشرت بها قصة لأحد كتّابنا الشبان ، والحق أني كنت أحسن الظنّ به فلم أراجعها المراجعـة الواجبة ، وفوجئت برئيس التحرير عبد الجليل دمق يدعوني لمكتبه ، ويناقشني متوتّرا عن أخطاء لغوية وبلاغية بتلك القصة ، بل إن بها جرأة جنسيّـة لا تحمد ، وكان واضحاً معي حين قال : إن كل ما ينشر بالصباح يجب أن يراعى فيه الحفاظ على قيمنا الأصيلة ، وفي مقدمتها سلامة اللغة والأسلوب ، وصيانة الأخلاق من أي إباحية وعقوق ، وهو قادر بلطف منه معهود أن يقنعك برأيه وأن يجعلك تشعر أن اقتراحه ، يخدم عملك الأدبي قبل أي شيء آخر ، قدمت له مرة دراسة عن كاتب تونسي انتحل نصا أدبيًا لغيره ، فنظر

إلى العنوان بسرعة ثم ابتسم وقال : ما رأيك لو أنك تغير العنوان ، فتجعله هكذا : من هو مؤلف هذا الكتاب ؟ بدلا من أن هذا الكتاب مسروق ، وبالفعل اقتنعت برأيه ، لانه يؤدي الغرض الذي كتبت من أجله دراستي .

إني لأحار حقا في هذه القناعة العجيبة ، التي يغلّف بها صاحبنا نفسه ، فقد كتب الكثير على مدى أكثر من عشرين سنة ، دون أن نجد له كتاباً واحدا ، ولو جمع ما كتب لكانت له مجاميع ، تفيد الباحث والأديب والصحفي .

لو طلبتم إليّ أن الخّص شخصية عبد الجليل دمّق ، من خلال لمعرفتي به كصديق ، ومن خلال انتاجه الغزير ومن خلال مواقفه ، من أحداث السياسة الوطنيّة والعربيّة والإسلاميّة لجعلته يتمثل ببيتي حماسة أبي تمّام :

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللّوى

فلم يستبينوا الرشد إلاّ ضحى الغد

وهل أنا إلاّ من غزيّة إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشـــــــد .

الفهـرس

صدر في سلسلة
كتاب المعارف

17 رمضان .... جرجي زيدان

شجرة الدر .... جرجي زيدان

عذراء قريش .... جرجي زيدان

صلاح الدين الأيوبي .... جرجي زيدان

عبد الرحمان الناصر .... جرجي زيدان

فتح الأندلس .... جرجي زيدان

فتاة غسّان .... جرجي زيدان

غادة كربلاء .... جرجي زيدان

عروس فرغانة .... جرجي زيدان

ارمانوسة المصرية .... جرجي زيدان

شارل وعبد الرحمان .... جرجي زيدان

العلاقات الجنسية في ضوء العلم .... يوسف تاننبوم

تحرير المرأة .... قاسم أمين

اخلاق الاجتماع .... رجب بودبوس

التجربة الوجودية في "اليوم الأخير" ... ابراهيم الحصايري

أسرار المخلوقات .... أبو حامد الغزالي

طغاة العالم .... جَلال المخ

دراسات في الأدب والنقد .... أبو القاسم كرّو

المنتخب في تاريخ أدب العرب .... مصطفى بدر زيد

أحمد فؤاد نجم من الثورة إلى الخيبة .... جلال المخ

في غياب السلطة الفكرية .... أبو زيان السعدي

دراسات في التاريخ والتراث .... أبو القاسم كرو

دراسات أدبية
صدرت في كتاب المعارف

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
بسوسة ـ الجمهورية التونسية

* المؤلف في سطور



ـ ولد بتونس في 7/03/1937

ـ درس بجامع الزيتونة، فأحرز على شهادة التحصيل العلمي.

ـ درس بجامعة القاهرة، ونال من كلية آدابها، شهادة الليسانس في الآداب واللغة العربية.

ـ عمل أستاذا بالمعاهد الثانوية في تونس، والسعودية وليبيا، ثم عيّن أستاذا باحثا بالمعهد القومي لعلوم التربية.

ـ عضو باتحاد الكتاب التونسين، واتحاد الكتاب العرب بدمشق.

ـ كتب الكثير من الدراسات والمقالات، في المجالات والصحف التونسية والعربية.

ـ صدر له من المؤلفات حتى الآن:

1 ـ في الأدب التونسي المعاصر.
2 ـ مواقف فكرية معاصرة.
3 ـ من أدب الرواية في تونس.
4 ـ نقد وتأصيل.
5 ـ في غياب السلطة الفكرية

تم سحب خمسة آلاف نسخة من هذا الكتاب.

تدمك : ISBN 9973 ـ 712 ـ 69 ـ 2

الثمن : 2.500 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.